عبده جبير

رجل العواطف

يمشي على الحافة

قصص

عبده جبير

- ولد في مدينة اسنا - صعيد مصر.

عن أعماله القصصية والروائية كُتبت الرسائل الجامعية التالية:

- رسالة ماجستير "الرواية العربية الجديدة في مصر، عبده جبير نموذجا، للباحثة المغربية " رشيدة زغواني، جامعة سيدي محمد بن عبد الله - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - فاس- ١٩٨٩ - دراسة لنيل دبلوم الدراسات العليا - كلية الآداب - فاس - بعنوان " الرواية العربية وتجليات النموذج الغربي. الوصف عند السارد في رواية عبده جبير تحريك القلب - نموذجا - إعداد عبد الرحمن الكوكبي ١٩٨٦ - دراسة لنيل دبلوم الدراسات العليا - كلية الآداب - فاس - بعنوان " رواية تحريك القلب لـ عبده جبير، محاولة في التحليل، إعداد الوكيلي علي ١٩٨٦. - فصل في رسالة الدكتوراه " الأسس النفسية للإبداع الأدبي، في القصة القصيرة خاصة للدكتور شاكر عبد الحميد، جامعة القاهرة، (صدرت في كتاب عن هيئة الكتاب.. - فصل في رسالة دكتوراه بالألمانية ، جامعة بون، بعنوان : الرواية المصرية في عصر الانفتاح ، للباحث ستيفان جوث ، ونشرت في كتاب عن دار نشر (K.s) برلين ١٩٩٢.. رسالة دكتوراه، جامعة المنيا، كلية الآداب، بعنوان: الفن والأيديولوجيا في روايات عبده جبير، للباحثة عالية مبارك حسين ٢٠٠٩.

abdogobair48@maktoob.com

رجل العواطف يمشي على الحافة

- **Author**: Abdou gubeir
- **Title**: The Sentimental Guy on a Tight Rope
- **Second Edition**: 2014
- **Cover Design by**: Amr El Kafrawy

- المؤلف: عبده جبير
- العنوان: رجل العواطف يمشي على الحافة
- الطبعة: الثانية 2014
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

رقم الإيداع:
١٠١٤٢ / ٢٠١٤

الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977 - 765 - 002 - 1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

75 QASR – ALAINI ST.، in Front of Dar Al-Hekma، - CAIRO – EGYPT
Tel: +202-2795-3811 Fax: 00202-2795-4633
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

٧٥ ش القصر العيني – أمام دار الحكمة – القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت: ٣٨١١ ٢٧٩٥ فاكس: ٤٦٣٣ ٢٧٩٥

عبده جبير

رجل العواطف
يمشي على الحافة

قصص قصيرة

آفاق - لامتان

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

جبير، عبده.

عبده جبير رجل العواطف يمشي على الحافة

قصص قصيرة

عبده جبير ط2 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع

2014

160 ص، 20 سم.

رقم الإيداع 10142 / 2014

الترقيم الدولي 1 - 002 - 765 - 977 - 978

1 - قصص قصيرة

2 - جبير، عبده

رجل العواطف يمشي علي الحافة

في الفصل الأول من المسرُحية كنت تحس بأن الوقت قد جاء لتستجمع شجاعتك، وترفع سماعة التليفون، وأنت جالس في الصالة علي الفوتي، بجوار الراديو الخشبي العتيق، لكنك ترددت وأعدت السماعة.

ذهبت إلى المطبخ وعملت «كنكة» كبيرة من القهوة، لعلها تذهب بصداع شراب الليلة الماضية، وعدت تطل من الشرفة، لكنك لم تقف طويلا، حتى لا يظل ظهرك فترة طويلة في مواجهة النظارة.

وهكذا تكون قد أنهيت المشهد الأول من المسرحية.

في المشهد الثاني من المسرحية عولت علي أن دوشا من الماء سيفك الضغط عن رقبتك ورأسك وعينيك، وسيكون بإمكانك العودة إلى سماعة التليفون وإجراء المكالمة، ستتمكن بالأحرى من العودة إلى حالتك الطبيعية كأي رجل في هذا العالم يريد امرأة بعينها وعليه أن يخطو الخطوة الأولي. أن ترفع السماعة وتطلب الرقم، وتعترف.

لكنك أحسست بأن الماء بارد جداً، أكثر مما تطيق، وأنك مهدد بالغرق في البانيو نصف الممتلئ؛ ومع ذلك بدا لك أن المشهد الثاني لم يكتمل.

ومن أجل أن يكتمل ذهبت إلى غرفة النوم وتمددت تحت الغطاء تنشد قليلا من الدفء، إلا أن الغطاء هو الآخر كان باردا أكثر مما تحتمل، ولم تحس بأن المشهد قد انتهي إلا بعد أن بدأ الدفء يشيع في جسدك، وذهبت في إغفاءة أيقظك منها صوت مفتاح الباب وخطوات أم سيد الشغالة وهي تدخل وتتجه إلى المطبخ، وعند إسقاطها للحلة النحاسية فوق الأرض، تأكدت أن المشهد قد انتهي، وأن الفصل الثاني يوشك على البداية.

في المشهد التالي من الفصل الجديد، حيث يتغير المنظر، يكون عليك أن تسرع بالذهاب إلى المسرح، وأن تدخل الغرفة الضيقة خلف الكواليس، وترتدي ملابس الشخصية، وتستسلم للماكيير وهو يرسم ملامح «هاملت» على وجهك، ومع الملابس تكون قد اكتملت الصورة.

لكنك بينك وبين نفسك، لا تحس بأنك مقتنع بقيامك بدور رجل دينماركي مهما كانت عظمته، حتى ولو من باب التمثيل.

لكنك عما قليل سيكون عليك أن تؤدي الدور بإتقان ممثل محترف أمام جمهور ينتظرك، وليس أمامك سوي أن تنتزع التصفيق من أيديهم، والصراخ من حناجرهم إذا أمكن.

لكن المشهد الذى أديته وأنت مقتنع به بالفعل هو أنك أمسكت بيد الماكيير وهو يضع البودرة على جبهتك، ورفعتها عاليا، ثم قمت إلى الحمام، لا لتتبول، بل إلى حوض الغسيل، وأزلت البودرة، وشطفت وجهك بالصابون والماء الدافئ، وعدت إلى غرفة الملابس. خلعت ملابس الشخصيةٍ، وارتديت ملابسك، وخرجت من المسرح إلى الشارع.

كنت تحس أنك في الفصل الأخير من المسرحية، وأن هذه السرعة البادية على لحظة الختام، كانت قد اختمرت طويلا في نفسك، وأن عليك أن تقوم بها الآن.

كنت تحس بأن عواطفك متأججة، وأنها لا تحتمل أي تأجيل، وما دمت تعرف الطريق إلى بيت «ميادة» فإن عليك أن تذهب على الفور، وتختصر الطريق، دون أن ترفع أي سماعة لأي تليفون، وتضعها أمام الواقع. تعترف لها بحبك وتنتظر

بالطبع كان هذا أقسى مشهد في المسرحية، لكنه لم يكن أكثر قسوة من تلك القسوة التي أحسها أولئك النظارة الذين قدموا من أطراف القاهرة الأربع، وهم يرتدون البدلات الكاملة وفساتين السهرة، ليتفرجوا على «هاملت» وهو يروح ويجئ على الخشبة، أو ربما كان ما هو أشد قسوة من كل ذلك هو ما يشعر به الآن أعضاء فريق المسرحية الذين ينتظرون بطلهم، وقد أخذهم الذهول حين عرفوا أنك خرجت من الباب الخلفي للمسرح،

وذهبت إلى بيت حبيبتك،
وأنك بالتأكيد لن تشارك في العرض.

المقابلة

قبل بداية البرنامج،كنت قد ارتديت حلتك المختارة، علي وجه حليق بعناية، وشعر تفنن الكوافير الرجالي في سبسبته، في واحدة من المرات القليلة التي تركته يمارس فيها فنونه المعاصرة في وجهك، وقفاك، وحاجبيك، وحتى الشعيرات النابتة علي دائرتي أذنيك،عمل فيهما بالفتلة، ثم دلّك وجهك بالكريم، ورش الكولونيا الفاخرة علي وجنتيك.

لقد كنت أنت الذي نبهه إلي أنك ذاهب إلي مقابلة تلفزيونية، وأنت الذي ارتديت حلتك الجديدة بنفسك،لكن زوجتك هي التي أعادت سبسبة شعرك، وزوجتك هي التي ربطت الكرافات، وهي التي وضعت المنديل الأحمر في جيب سترتك العلوي علي هيئة وردة، وهي التي ودعتك عند الباب بقبلة،فابتسامة، لم تكن قد رأيتها علي وجهها منذ ثلاثة أعوام ونصف، بعد شهر العسل الذي كانت تبتسم خلاله طوال الوقت، ثم رأت أن حياتها التي بدت صعبة معك، قد كفت عن منحها أية فرصة للابتسام.

لكنك أنت نفسك من نزل درجات السلم مرتبكا، وزاد ارتباكك حين رأيت نشوي، ابنة الجيران، ذات العينين الواسعتين، والخدين الموردين، وهي تبتسم في وجهك بجرأة كانت كافية لكي لا ترد عليها السلام، بل كدت تسقط علي الدرجة الأخيرة علي همهمتها التي لم تكن تعرف ما إذا كانت من باب الإعجاب أم التشفي.

التشفي من حالتك الغريبة التي لم تكن قد رأتك عليها من قبل، خاصة وأنت تضع يدك في جيبك تبحث لتتأكد من وجود ورقة الدعوة لأجراء المقابلة معك.

كان هذا قبل بداية البرنامج، بل قبل وصولك إلي ماسبيرو،بل وقبل أن تنزل من التاكسي أمام باب المبني الكبير الذي يعرفه كل البشر باعتباره مبني التلفزيون الذي يرون نجومه ونجماته طوال الوقت علي شاشاتهم في البيوت، بمن فيهم هذا السائق الذي لم يكن يعرفك، لكنه نظر إليك نظرة مختلفة حين طلبت منه الوقوف أمام هذا الباب.

وقبل بداية البرنامج بقليل،كنت لا زلت شبه غضبان من رجل الأمن الذي فتشك أمام باب المبني قبل أن يسمح لك بالدخول، علي الرغم من ورقة الدعوة التي كنت تمسك بها في يدك طوال الوقت منذ منتصف المسافة وأنت في الطريق إلي هنا، ولم تخفف من ضيقك كفكفات معد البرنامج الذي استقبلك علي السلم

العريض بابتسامة، ورحب بك، وتركك جالسا في غرفة واسعة شبه مظلمة مع كوب من الشاي، وحيدا يمر بك الناس، من باب، ليدخلوا في الآخر، من هؤلاء النجوم والنجمات، وآخرين لا صفة لهم بالنسبة لك، إلا أنهم كانوا يبدون علي هذا القدر أو ذاك من الأهمية، لكنهم مثل النجوم في مشيتهم المسرعة، من بداية الغرفة إلي نهايتها، مرورا بك، وأنت تجلس ولا تزال تكفكف ضيقك الذي تسببت فيه يد رجل الأمن الذي أصر علي تفتيش جيوبك، بل مر بأصابع يديه علي جسدك كله، وتحسسه، ليتأكد من خلوه من أي أداة للقتل.

كنت أنت هو الذي جلس طويلا ينتظر أن يحدث أي شيء طوال هذا الوقت، لكنه لم يحدث، وأنت الذي رحت تسأل، وأنت تعتذر عن نسيانك لساعة يدك في البيت، بين وقت وآخر شخصا يكون أقل سرعة من غيره، تسأله عن الوقت، وهو يجيب، لكنك لم تكن تسمع، لأن صوته كان يبدو منخفضا أكثر من اللازم، علي الأقل في تصورك لقوة الصوت في هذه اللحظات الطويلة التي لا تريد أن تنتهي، لأن ضغطك هو الذي بدأ في الهبوط إلي حد تخيلت أنه بإمكانك أن تعتذر بسببه عن الاستمرار في تصوير البرنامج، لكنه مضي وقت طويل دون أن تجد من تعتذر له.

وحين جاء معد البرنامج الذي كان بإمكانك أن تعتذر له،لم تستطع، لأن الرجل الأكثر شبابا منك، كان يبتسم لك ويعتذر

هو نفسه عن كل هذا الوقت الضائع، ثم أخذ يعتذر وهو يمسك بنسخة من روايتك لأنه قضي كل هذا الوقت في شرح الرواية للمذيعة التي لم تكن تعرف عن روايتك أي شيء، وكان عليه أن يشرح لها شيئا مما فهمه هو من هذه الرواية الصعبة التي عذبته، هو نفسه،عند قراءتها، وأسر في أذنك بأنه اضطر لأن يقول للمذيعة،حتى يكون هناك مجال للحوار،بأن الرواية تعد الآن لتصبح فيلما، يعرض في السينما،لكنه لم يقل لها من سيخرجه من مشاهير الإخراج، ولا من هي النجمة التي ستقوم بدور البطولة، وأنه بإمكانك أنت نفسك أن تقول كلاما غامضا عن الموضوع، لأنه يعتقد بأن المذيعة ستصر علي تكرار السؤال عليك، عن بطلة الفيلم ومخرجه، علي الرغم من أنه ذكر لها بأن الموضوع لا يزال في طي الكتمان.

لقد كنت أنت نفسك من أحس بثقل المهمة وأنت تتحامل علي قدميك وتدخل إلي الأستديو قبل إجراء المقابلة بقليل، لا بسبب أن الإضاءة الخافتة قد أشعرتك بالضيق، ولا من أن شكل الديكور كان يوحي بأنك تجري المقابلة علي شاطئ البحر، ولا خوفك الطبيعي من الأمواج العالية التي كانت تهدر خلفك علي جدار الأستديو، ولا من أصوات الصيادين وهم يتبادلون السباب بأفواه مفتوحة تنفث الحمم كما الديناصورات القديمة، ولا لأن طيور البحر نفسها كانت من ذلك النوع المتوحش الذي

يصطاد أسماك القرش ويطير بها ليمزقها إربا علي الصخور، ولا من أصوات البواخر التي تدوي في الأفق علي هيئة دوائر تتسع كلما أضحي الأفق بعيدا، ولا من تلك الروافع التي كانت تموج بالكاميرات فوق رأسك، بل من أنك، وبشكل طبيعي، لم تكن قد تعودت علي مثل هذه المقابلة من قبل، حتى أن مساعد المخرج أصر علي حضور الماكيير ليعيد بلمسات الماكياج ملامح وجهك إلي حالتها الطبيعية، وقبلها سيكون عليه أن يمسح العرق المتصبب علي جبينك، لكنه لم يستطيع فعل شيء للعرق النازف من تحت إبطيك سوي تغيير زاوية جلوسك، مما جعلك في مواجهة مقعد المذيعة الذي كان لا يزال فارغا.

لقد ظل هذا المقعد فارغا طوال الوقت، وهم يضبطون الإضاءة حتى يختفي ظلك الذي كان يختفي من زاوية ليظهر في أخري، والأضواء مسلطة عليك،حتى طلب منك مساعد المخرج أن تدخل بقدميك قليلا تحت المقعد، وتلف كتفك لليسار دون أن تعيد حركتك إلي أي جهة أخرى، ثم أنه قام بنزع منديل جيبك الأحمر، ووضع مكانه منديلا أبيض، طابقه علي هيئة هرم بدلا من وردة زوجتك التي لم تكن مناسبة لك علي أية حال، أنت الذي أحسست الآن بأنك قد تجاوزت العمر الذي يضع فيه المرء وردة في عروة سترته.

لم يكن هذا كله قد حدث لك قبل دخول المذيعة إلي الأستديو خافت الضوء، بل قبل أن يدخل المخرج وهو يوزع الأوامر علي فريق العمل، وطلب هو أيضا أن تعتدل في جلستك، وترفع رأسك حتى يري الناس وجهك، وتفتح عيناك لتبدو متيقظا، وأطلق نكتة عارية عن النوم ضج لها المكان بضحك كان يأتي من زوايا لم تكن تري من يقف فيها.

لكن ما حدث هو أنك لم تحس بشيء مذ دخلت المذيعة بشعرها الذهبي الطويل، وجونلتها القصيرة، ولمحت منها ذلك الفتق الخفيف بين نهديها، حتى أن عطرها الفواح نفسه، لم يوقظك من غفوتك التي استمرت طوال الوقت، حتى أنك لم تعد تعرف،الآن، وأنت تخرج من مبني التلفزيون الكبير،ماشيا علي قدميك المتخشبتين، ما إذا كنت قد قلت كلاما معقولا، أم أنك تلجلجت، قلت ما كنت تريد أن تقوله، أم أنك صمت طويلا حتى نهاية البرنامج، بل إنك لم تعد تعرف، الآن، ما إذا كان البرنامج قد سجل بالفعل، أم أن فريق الأستديو قد انفض دون أن يحدث أي شيء، سوي تلك التعابير التي ارتسمت علي شفتي المذيعة، المضمختين بالأحمر الفاقع، وهي تبدي علامات النصر الذي حققته علي الجميع، بوجودها الطاغي الذي ساهمت في سيطرته،تلك الألوان، والروائح، والمنحنيات، بل تلك الأصوات.

لكنك أنت من خاف علي نفسه من استمرار هذه الحالة معك، فرأيت أنه من الأفضل أن تمشي في الطرقات والشوارع، تمشي طويلا وكثيرا حتى تتخلص من أي علامة يمكن أن تدمر حياتك لو أن زوجتك ضبطتك متلبسا بها، فمشيت حتى وصلت إلي الضفة الأخرى من النيل ،وجلست علي المقعد الخزفي وأنت تحدق في المياه التي كانت أضواء المباني الشاهقة تنعكس عليها من الشاطئ الآخر.

لكنك لم تقف، لتعود إلي زوجتك، إلا حين تأكدت أن أضواء ذلك المبني الذي كنت داخله منذ قليل، كانت هي الأكثر وضوحا من كل الأضواء.

في ظل قصة ما

في الجزء الأول من القصة كنت تري عبد الستار لطفي وهو يجلس الآن علي الكنبة مستغرقا في قراءة قصة، وقد تسبب إدمانه علي قراءة القصص،طوال الوقت، في مشاكل عديدة مع زوجته سلوي،لأنه، لا فقط، ملأ كل فراغات جدران الشقة الصغيرة بأرفف القصص، بل لأنه، أيضا، كان يتركها وحيدة، حتى ولو لم يكن هناك مسلسل تتفرج عليه، ويعيش مع قصصه التي أضحت بالنسبة لها مشكلة مزمنة بلا حل.

وفي الجزء الأول نفسه من القصة،طلبت سلوي من والديها التدخل فتسببت في مشكلة،لأن والدتها الطيبة لم تكن تري في إدمان زوجها عبد الستار علي القصص أي ضرر ما دامت تجعله يجلس في البيت، وإن كان والدها قد رأي أن شكل البيت أصبح لا يطاق بهذه الأرفف العديدة التي تغطي الجدران من الأرض إلي السقف، وتسبب هذا في خلاف بين الأبوين، وما خفي أن والدة سلوي كانت تري أن بقاء الزوج في بيته، حتى ولو جلس طوال

الوقت ليقرأ قصصا لا يمكن أن يكون في مثل سوء ما أدمن عليه زوجها، والد سلوي نفسه، من الجلوس علي المقهى حتى تغلق أبوابها، كل يوم، كل يوم، طوال عمره، يلعب الطاولة، ويدخن الشيشة التي أهلكت صدره،ويقتطع من ميزانية البيت ما هو في حاجة إليه.

في الجزء الثاني من القصة كان عبد الستار قد لاحظ أنه بدأ يرتكب حماقة تجعله يعيد قراءة القصة مرة ثانية لأنه أضحي ما أن يبدأ في قراءة القصة حتى يجد نفسه يتابع البطلة، ويتجاهل البطل، حتى أنه، وبشكل تلقائي، كان يقفز تلك الصفحات التي كان البطل فيها هو محور الحدث، وهو ما كان يجد فيه، وهو المحترف لقراءة القصص، خيانة من نوع ما، الأمر الذي كان يعيده لقراءة القصة من جديد، وهاهو قد لاحظ أنه لا يزال يقرأ نفس القصة منذ أسابيع، دون أن يتركها إلي أخري.

صحيح أن القصة كانت هي قصة قيس وليلي، في صياغة جديدة، كتبتها كاتبة شابة تسمي نفسها فرانسواز ساجان العرب، إلا أنه وهو القارئ المحترف لا يمكن أن يظل يعيد ويزيد في قراءة نفس القصة، حتى ولو كانت فرنسواز العرب قد أحسنت في وصف تقاطيع ليلي العصرية التي ترتدي الجنز المحزق الممزق من الجانبين والذي يظهر كل شيء تقريبا، وكيف أن هذه الشابة التي لم تتجاوز السادسة عشرة، والتي وصفتها ساجان العرب

بذات الجيد اليافع والشفتين الملتهبتين،تحسن أفعالا لا تحسنها امرأة في الثلاثين من العمر، وعند هذا الجزء من قصة ليلي راح عبد الستار يتمني أن تكون زوجته بهذا القدر من الإيجابية الذي عليه ليلي، فهي التي كانت تفعل كل شيء تقريبا، ولا يفعل قيس سوي الاستمتاع.

وفي هذا الجزء نفسه لم تلاحظ سلوي شيئا من هذا، وإن كانت بالفعل قد بدأت تحس بالغيرة، وقد تمزق قلبها من هذه القصص التي تأخذ زوجها بعيدا عنها، خاصة وأنه لم يكن بإمكان أي منهما الإنجاب، الأمر الذي تأكدا منه بعد إجماع الأطباء علي ذلك، كما أنها، ليس في هذا الجزء من القصة، بل في ما يمكن عده ترجيعا لبداية قصتهما معا، فهي في الحقيقة تقول بأنها تحب عبد الستار ولا تجد أي حل آخر سوي الاستمرار معه ، وهي أحبته من البداية، مذ كانا شابين، يخرجان سويا، ويتمشيان علي الكورنيش، فهي ومنذ هذا الجزء من القصة كانت تحبه، ولا تستطيع، حتى ولو تقادمت القصة، أن تغير من مشاعرها تجاهه.

كل ما تحاول سلوي فعله، في هذا الجزء من القصة أن تجعله يجلس معها ولو ساعة واحدة كل يوم، يكرر عليها الكلام الحلو الذي كانت تسمعه منه في بداية القصة.

لكنه إذا ما عاد عبد الستار نفسه إلي هذا الجزء من القصة كان يعود إلي كل القصص التي قرأها، فيجد أن ما يساوي هذا الجزء

من قصته، في كل القصص، كان يصل بالبطل والبطلة إلي مثل ما وصل هو نفسه إليه مع زوجته، علي الرغم من أنه لا يستطيع إنكار أنه اعتاد علي حياته مع سلوي، سواء في هذا الجزء أو أي جزء آخر، وهو ما دفعه لأن يبحث ما بين السطور عن السبب الذي يجعل بدايات القصص في الحياة بدايات ساخنة، لكنه ليس بالضرورة أن تكون كذلك في القصص المكتوبة، وهي في الحياة تبرد بمرور الوقت، ويصيبها الملل، لكنها في القصص المكتوبة والتي تتحول إلي أفلام تعرض في السينما غالبا ما تستمر بنفس السخونة لتصل للنهاية السعيدة التي غالبا ما تتوج بالأطفال، وملابسهم، ولعبهم، وضوضائهم التي تملأ البيت بقصص لطيفة تحكيها الأم وهي تضحك.

فجأة يتذكر عبد الستار بأنه قد وصل إلي لحظة التنوير في القصة، وأنه هنا لا بد أن يصل إلي لحظة من الذروة التي تجعل القارئ ينجذب للقصة ويتابع القراءة، وأنه لذلك لا بد من فعل مفاجئ، قد يكون صادما للبعض، لكنه لا بد أن يحدث، وإلا فإنه يكون قد فشل في قصته، فقام ليجمع ملابسه في نفس الحقيبة التي جاء فيها بملابسه ليلة زفافه منذ عشرين عاما، وملأها بالملابس، وعلي الرغم من أن سلوي رأته وهو ينفض الغبار عن الحقيبة إلا أن خيالها لم يذهب إلي الحد الذي يجعلها تفكر بأن عبد الستار قد قرر ترك البيت، لذلك واصلت متابعة مسلسلها

الذي كان قد وصل الآن إلي إلقاء القبض علي المجرمين علي يد رجال العدالة،بعد أن نهبوا البنوك، وقتلوا الأطفال، ومزقوا وجوه الفتيات، وأطلقوا النار علي المارة، لذلك كانت هي مأخوذة هناك إلي ما يحدث في قصة المسلسل، ولم تنتبه إلي أن عبد الستار قد خرج من باب البيت، دون أي حركة عنيفة، لكنه كتب في ورقة تركها علي طاولة السفرة ما اعتبره نهاية طبيعية لقصته، وهو بالقطع سرعان ما يتكشف عن فعل قاس يصل إلي حد الجريمة وهو يترك سلوي بعد عشرين عاما من الزواج، لا لسبب إلا لأنه رأي أن أي قصة،في جزئها الثالث والأخير، تصبح في لحظة الذروة، وأن هذه اللحظة قد وصلت به إلي أن يترك البيت، متجاهلا حتى قصصه التي ملأت الجدران، فقد كان قد قرأها كلها علي أية حال.

الزاوية الأخيرة في طبق الأصداف

لو أنك كنت -مثلي- تحب الجلوس في شرفة منزلك المطلة على الحديقة الداخلية لبيت السنّاري الأثري، تقرأ جرائدك، وتتصفح المجلات، في العصاري الرطبة، وتسترق السمع لما يجري من حولك في الحواري المحيطة، لو أنك كنت كذلك، لعرفت أن الصراخ الذي انبعث من شقة عم خليل، والد جيداء، قد أثار لغطا كبيرا في السيدة زينب كلها تقريبا.

لقد ارتديت ملابسي على الفور، ونزلت إلى المقهى، وطلبت الشيشة المعتادة، والشاي بالنعناع، وأخذت أشد الأنفاس، وأختلس النظر، والسمع، دون أن أشارك، كالعادة، فيما يجري، ثم تجولت عند البقال، والعطار، واشتريت أشياء لم أكن أفكر في شرائها، قبل الصراخ الذي دويّ في المكان، وأثار كل ذلك اللغط الذي سمعته، ورأيت الناس يشاركون فيه، ويختلفون حوله، لا، بل إن بعضهم تعارك، إلى درجة الاحتكاك بالأيدي، وكل ذلك، كل ذلك لم يكن بسبب عم خليل، بائع الطرشي، ولا بسبب

زوجته فاطمة عالية الصوت، ولا بسبب ابنته الكبرى سامية. ولا بسبب أخيها الوحيد سليمان، بل بسبب جيداء نفسها، فقد كانت جيداء دائما بلا صوت تقريبا، أما أن يصدر عنها هذا الصراخ الرهيب الذي زلزل المكان، فقد كان لا بد أن يحدث كل ذلك.

لكن الحقيقة التي لا يمكن أن ينكرها أحد هنا، لا أنا ولا غيري، هو أن الموضوع لم يكن موضوع الصراخ نفسه، بل كان جيداء نفسها.

إنه لا يمكنني القول سوي أنني شخصيا، وأنا أحاول وصفها، أحس كأن رجفة تهز كياني، وأن ما رأيته - بعد ذلك - في الطبق المشغول بالصدف، وفي زاويته الأخيرة علي وجه التحديد، قد أصابني في الصميم من معتقداتي التي كانت ترفض دوما هذه الخرافات التي شاعت وتحدث بها الجميع، طوال الشهور الأخيرة، منذ انتبهت لوجود هذه الجيداء، ولم أكن أصدقها، بل كنت أسخر منها حتى حدث لي ذلك شخصيا، وبالتحديد، بعد عودتي من جولتي في السوق.

فما أن دخلت شقتي، وكان ما جمعته من أقاويل لا يزال يطن في رأسي، وخلعت سترتي وقميصي، وجلست علي الكرسي النحيل في ركن الصالة، لأخلع حذائي، حتى رفت عيني إلى بريق مدهش رأيته في طرف الطبق المعشق بالصدف والمعلق فى منتصف الجدار، وهو يتلألأ بوجه فاتن، سرعان ما تبينت أنه

وجه جيداء.

لقد طالعته جيدا، وتأكدت منه، وابتسامة ساحرة مرسومة على الشفتين المكتنزتين الموردتين المبللتين بطعم الكرز، لكن ويا للأسف اختفي الوجه ما أن زالت الدهشة الأولي، وبدأت أحاول الإمساك بالصورة بعين العقل، وهكذا راح الهاجس يؤنبني على أنني لم أستجب للإلهام في لحظة الحدس، وعدت إلى عادتي القديمة التي أضحت أشبه بالمرض، وفتحت عيني كي أري جيدا، ربما أكثر من اللازم.

حملت نفسي إلى الداخل، وتمددت علي السرير النحاسي دون أن أقوي على فتح النور، وأخذت أحملق في سقف الغرفة قليل الضوء، وأنا أحس بندم يلكزني في روحي كجرح مؤلم، لم أحس به من قبل، ولا مرة واحدة في حياتي، لكن كل شيء كان قد انتهي.

والغريب أنني تأكدت من هذه النهاية، لدرجة أنني لم أستطع العودة للنظر إلى طبق الأصداف، لأنني كنت أعرف أن هذا لن يزيد التجربة إلا مرارة، وأن عليّ الآن أن أسترجع كل تلك الحكايا التي كان الناس يحكونها عن العلامات التي كانت جيداء تظهر بها.

كانت جيداء هي دائما بطلة كل تلك الحكايا. كانت تظهر أحيانا على هيئة فرس عليها سرج مطرز بالخرز الملون، ولجام

من الذهب الخالص، كما تحدث رمزي السروجي، عازف الكارينيت، الذي أقسم أنه رآها رؤيا العين وهي تتمخطر على طريق أخضر محفوف بأشجار الرمان والمانجو، وكان النيل هناك أيضا ينساب كالنسيم، أو كما رآها مصطفي أحمد عازف الإيقاع الشهير في فرقة أم كلثوم الموسيقية، علي الرغم من صغر سنه، وهي في الملاية اللف والمنديل أبو قوية، وفي يديها عشرات من الغوايش، وفي ساقيها الجميلتين الملفوفتين، خلخال من الفضة يشخلل كلما مشت في زاوية الشارع، حيث كانت تظهر له في غبشة المساء وتختفي، وهو الأمر الذي ما أن تحدث به حتى ثارت ثائرة كل موسيقيي السيدة زينب الذين يبدو أنها اختارتهم هم بالذات لتظهر لهم، وهو ما كان لائقا بها دوما، أن لا تظهر إلا لفنانين من هذا النوع، وهو ما أثار حفيظتي أنا شخصيا، فكيف لكاتب قصص قصيرة متواضع الحال مثلي أن ينافس على حورية من هذا النوع الملهم لكل الموسيقيين في السيدة زينب، وهم ما هم عليه من جبروت يجعل حتى راقصات الفنادق الكبرى (الخمس نجوم) يخطبن ودهم.

لكن لو كان الخيار في يدي لتعاطفت أكثر ما تعاطفت مع عازف الناي النحيل الرقيق الصامت سليمان النجار الذى ما أن ظهرت له في زاوية غرفته المركونة على سطح عمارة الركّيب، صاحب المطعم الشهير، حتى نزل واشتري لها الشبْكة الذهبية

بكل ما ملكت يداه، وظل يحملها في علبتها القطيفة الحمراء يفرّج الناس عليها في المقاهي والحانات، وعلى عتبات البيوت ويقول بصوته المبحوح: هذه لها. إنها لجيداء، سيدة الكون، ثم يرهف بقصائد العشاق، بدءا من قيس بن الملوّح وحتى كامل الشناوي، الشاعر الحزين الشكاك، لكن هذا لم يفت في عضد جيداء أو والدها الطماع.

لكن هذا، على أية حال، كشف حال جيداء، فصرّحت لأول مرة بأنها لا تريد أن تخطب لأي من هؤلاء الموسيقيين، ولا لغيرهم، لأن الذي كان قد حرك قلبها قد مات في حادثة القطار الشهيرة، مات حرقا مع ثلاثة من زملائه وكانوا جميعا من طلبة كلية الفنون الجميلة، وكان هو رساما صنع لها لوحة لم تتمكن من الحصول عليها بعد حادثة موتهم وأصرت على أنها كانت قد كُتبتْ له منذ الأبد، وأنها لا يمكن أن تخون العهد، وأنها كيف يمكنها أن تنكشف على رجل آخر بعد أن انكشفت عليه وهو يرسمها فى لباسها الأبيض الخفيف؟

لكن ما سمعته بعد ذلك، وأنا أعود للجلوس في الشرفة مطقطقا أذنيّ لسماع بقية القصة هو ما أذهلني حقا.

كان الصراخ الذي أظهر صوت جيداء على هذا النحو الفاضح، لأول مرة، بسبب آلم الأسنان: كان ألما موجعا إلى حد أنها لم تستطع الذهاب إلى المستشفى لعلاجه، فجاءوا لها

بالطبيب في البيت.

دخل الطبيب الغرفة لمعالجة الحالة، وما أن كشفت وجهها السمح حتى خر صريعا، فجاءوا بعربة الإسعاف التي حملتهما معا إلى مستشفى قصر العيني، ووسط الهرج والمرج اندس الموسيقيون بين الحشد الغزير من الرجال الملهوفين على رؤية أي طرف من أطرافها اللينة، حتى ولو إصبع قدم، والنساء الغيورات اللواتي تكاد تتفتت أكبادهن، وكل عازف كان يحمل آلته الموسيقية الصامتة، ويمشي بين الناس، حزينا ومكلوما.

لكن الوحيد الذى تجرأ على إصدار صوت من آلته كان هو سليمان النجار، الذى لم يكن يضيره، أو يضير الموقف المشتعل، أن ينفخ بهدوء فى نايه النحيل، وهو جالس على الكرسي، على سطح العمارة، والناس من تحته يمشون، وهو يصدر صوتا حزينا يليق بالموكب.

نرمين : عيون خضراء

تخطت «نرمين» الدرجات الثلاث المحطمة للبيت القديم في حارة «السداوي» بصعوبة فيما يشبه المعجزة بحذائها ذا الكعب العالي، ولو أنها كانت قد افتقدت الدافع الحقيقي لأن تتجشم عناء بهذا القدر من الصعوبة، لما فعلت، ولكنها وهي تضع نفسها في تحد مع العالم، تخطت الدرجات، برشاقة الغزال، خاصة بعد أن فقدت عشرة كيلوات من لحمها الأبيض، الأمر الذي لم تكن أمها «سنية» قد وافقت عليه، لكن «نرمين»، الذاهبة الآن إلى الكلية كانت قد جادلتها، بما سمعته هي نفسها، بل ورأته رأي العين، من منافسة محتدة على الرشاقة التي أصبحت الموضة السائدة هذه الأيام بين الفتيات، لا في كلية الآداب فقط، بل وحتى في الحقوق والهندسة والطب، لذا فإنها صورت صفحات «ريجيم ليلي علوي» من زميلتها «سلوي» التي كانت تواظب على شراء مجلة «حواء» التي اعتادت على نشر حلقات رجيم النجوم في كل أعدادها، ولم تكن «نرمين» تستطيع شراءها، لأن الحالة «موش

ولا بد»، خاصة منذ انقطع أخوها «حمادة» عن العمل كفني كهرباء مع المقاول الذي طرده لسبب ما، وعاد إلى الفراش.

كان «حمادة» إذن هو السبب في أنها لم تعد تذهب إلى الكلية بالتاكسي، بل اضطرت منذ عودته إلى الفراش إلى ركوب الأوتوبيس، ومن أجل ذلك كان عليها أن تمشى من الحارة، إلى شارع «زين العابدين»، ثم تخترق زحام «سوق السيدة» المكتظ بالنسوة المتصايحات على الطماطم وكأننا في يوم القيامة.

وصلت «نرمين» إذن إلى شارع السد ومشت في اتجاه الميدان، بعد أن تخطت الحفر والبقع الزلقة، وكثيرا من تعليقات الغزل البريء، وغير البريء، خاصة من ذلك الفم الذي يلقي الكلام كالحجر، على الرغم من أن صاحبه كان قد تلقى «لكاميّة» ساخنة من «حمادة» الذى كان قد صرخ في وجهه: «أنت يابن أم عطية. إن لم تبتعد عنها حطمتك في المرة القادمة»، لكنه لم يكف أبدا عن التعليق خاصة على خلفيتها التي كانت تشغل باله علي وجه الخصوص، مما يجعلها تتعثر كل صباح، وتكاد تقع على وجهها، خاصة حين تكون لابسة الكعب العالي وفي طريقها للكلية، وتراه هناك، جالسا علي المقعد، خارج المقهى، يشرب الشاي بالحليب.

«نرمين» وصلت إذن إلى «ميدان السيدة»، لكنها قبل أن تصل إلى محطة الأتوبيس، رأت الأتوبيس يقف على المحطة، فأحست

بأن عمرها نفسه سيفوتها، لكن السائق توقف لها ما أن رآها مقبلة تشير بيد مرتعشة، الأمر الذي لم يسلم من تعليقات الرجال، على هذه المحاباة الخاصة للبنت البيضاء المكتنزة لابسة الجينز.

صعدت «نرمين» إلى الأتوبيس المزدحم تتصبب عرقا، من كل شيء، في نفسها غضب، وفي حلقها غصة من هذا الوضع الصعب التي تجد نفسها فيه كلما توقف «حمادة» عن العمل، وعاد إلى الفراش، وعادت هي للأوتوبيس، لأنها لا تستطيع أن تركب التاكسي من المعاش الصغير الذى تركه والدها المتوفى، وتجد نفسها محشورة بين أجسام الركاب التي دائما ما تفوح برائحة العرق الشديد، تحس حتى تضع قدمها على الرصيف المقابل لجامعة القاهرة بأن العالم أسود من جلباب أمها الحزينة منذ فقدت زوجها الذى سقط من سقالة على ارتفاع ستة أدوار.

الآن هي تتنفس الصعداء: تنظر إلى قبة الجامعة كأنها ذاهبة إلى الحج، لا لأي سبب سوي أنها تخلصت من وجودها في الأتوبيس، لذا فإنها تضع في أوليات حياتها أن يكون زوج المستقبل أي شيء إلا أن يتركها في مثل هذا الموقف الصعب، دون عربة خاصة حتى ولو «فولكس» صغيرة، لكنها لن توافق على زوج آخر

وماذا لو كانت «مرسيدس» أو «بي. أم. دبليو؟» .

«أليس هذا أفضل؟»

قالت ذلك على دفعتين، بين دخولها الحرم الجامعي وطلوعها سلم الكلية، دون أن تهتم بإشارات زميلاتها «سوسن» و«سالي» و«سعاد» الواقفات على جانب المدخل، فقد كانت «نرمين» تعاني، فى هذه اللحظات، من رغبتها الشديدة في التبول، فاندفعت إلى دورة المياه وهي تدعو الله أن تكون إحدى الغرف فارغة، لأنها لم تعد تحتمل، ولم تعرف الراحة إلا وهي تفك الحزام، وتسحب السروال، وتجلس، وتدفع الماء إلى أسفل، لتحس بالهرب من بداية صداع كاد يمسك برأسها بقبضتين من الفولاذ.

«كيف يكون عليه شكلي؟»

قالت «نرمين» وهي تعيد كل شيء إلى حاله، وتفتح الباب وتقف أمام المرآة.

«لا بأس»

على الرغم من أن أحمر الشفاه كان قد خف، فلم يعد هناك وقت لإعادة الطلاء: لم يعد هناك سوى دقيقة واحدة على الدرس.

- ٢ -

هل يمكن القول أن وقتا طويلا مر عليها وهي تطارد الألوان المتداخلة من أمام عينيها؟ هل مر وقت طويل وهي تحاول تجميع ذاكرتها من بين الركام؟ هل سيكون عليها أن تنتظر طويلا قبل أن يحدث شيء ما بخصوص...

«ماذا؟ هذا أو ذاك»

«كل شيء هو هكذا»

«مصيرك. هناك. في مستشفى العباسية؟»

من هو / هي / الذي / التي / قال / قالت / هذا؟

«أنا فعلا كذا.. يجب أن أفعل شيئا..

«يجب أن أبتعد عن البنت سعاد التي..

«يجب أن أبتعد أيضا عن سوسن..

«لا لن ألبس العيون الخضراء المستعارة»

«يكفي أنني أدخن»

اشتاقت فعلا لسيجارة

وحيث أنها كفتاة تخاف على مستقبلها من الكلام، لم يكن لها أبدا أن تدخن في مكان آخر سوي بيتها، هناك، في «حارة السداوي».

خرجت «نرمين» من الحرم الجامعي، وقررت، هذه المرة، أنها لن تركب الأتوبيس، مشت في الشارع الطويل المؤدي إلى كوبري الجامعة وعينها على حديقة الحيوان التى كانت تمشي الآن بجوار سورها، وانتابها إحساس غريب، وهي تتعثر بالكعب العالي، بأن الأسد ربما قفز الآن، والآن بالذات، والتهم ثديها، لا، ربما خدها، وشوهها، لكنها، عند هذا الحد، خففت من مشيتها وأكدت لنفسها أنها أكثر شجاعة مما يظن أي شخص في هذا العالم، وتطلعت هنا وهناك فوجدت أن لا أجد هناك

فقررت مواصلة الرحلة على الكوبري بهدوء وثقة: تتطلع إلى ماء النيل تحتها مرة وتتابع العربات المنطلقة في الاتجاهين مرة أخريي حتى وصلت إلى ميدان «زين العابدين»، وهناك أدركت أنها استعجلت في العودة من الكلية، وأنه سيكون عليها أن تخلع الجينز والقميص الشفاف، والسوتيان الجديد، بل وحتى، سيكون عليها بمجرد دخول البيت أن تزيل أحمر الشفاه بالكريم، وترتدي الجلباب الأسود، والشبشب الزنوبة، لتخرج إلى السوق وتزاحم النسوة على عربات الخضار، وتعود محملة بالكرومب والشبت والطماطم، لكنها فوجئت بأن لا أحد هناك في البيت: لا أمها ولا «حمادة» ولا أختها «ضحي» المطلقة التي تحمل أبنتها «نهي» الصغيرة على ذراعها ليل نهار، لا احد على الإطلاق، وما زاد من رعبها أنها وجدت التلفزيون والعا و«نيللي» تقفز وتغني الفوازير.

فتحت شباك الغرفة وخلعت ملابسها، أشعلت سيجارة وجذبت نفسا طويلا وركنتها فى الطفاية، لكنها قبل أن ترتدي جلابية البيت وجدت لديها رغبة لا تقاوم في تجربة العيون الخضر المستعارة التي أهدتها لها زميلتها «سلوى».

أخرجتها من الحقيبة وفتحت عينيها واحدة بعد الأخرى ولبستها.

تراجعت للخلف (وكانت لا تزال في ملابسها الداخلية): لم تر شيئا.

معلم الموسيقى

- «أنظر هناك. انظر»

قال جورج، السائق الهندي، وآنا أري على وجهه علامات مختلطة: قليل من الذعر، وبعض السخرية، والعجب.

قلت مأخوذا:

- «ماذا؟»

قال وهو يقود السيارة بسرعة أكبر

- «هذا الرجل الكبير ذو العوينات!»

قلت:

- «أين؟»

قال.

- «إنه هناك. في تلك السيارة.

واقترب.

- «في هذه السيارة الدودج القديمة!»

ورأيته.

كان رجلا عجوزا ذا عوينات سميكة، لكنه يمتلك بنية عريضة تنبئ عن أنه كان في شبابه قويا، لكنه الآن كان يقود عربته بهدوء، ورأيت منه: جاكتته الرمادية الحائلة، ورابطة عنقه البنية، لكنني لم أر سوي جانب وجهه.

أنفجر جورج في الضحك وهو يشير للرجل الذي لم يكن ينظر تجاهنا، لكنه ينظر للأمام لحظات، ثم ينظر إلى الرصيف المجاور له على اليمين.

كان سائق العربة المرسيدس خلفنا منزعجا من طريقة قيادة جورج الباردة، فأخذ يقلب الضوء فى مرآته فاضطر أن يسرع حتى تجاوز الرجل الكبير صاحب العربة الدودج القديمة.

قال جورج وهو يحاول أن يهدأ:

- «إنه معلم الموسيقي»

قلت:

- «معلم الموسيقي؟»

قال:

- «آه. كان معلما للموسيقي لمدة تزيد عن خمسة وأربعين عاما قضاها في مدارس الكويت يعلم الأولاد والبنات الموسيقي، وهو الآن على المعاش، وتحول إلى إصلاح الآلات. ألآت الموسيقي. لكنه رجل غريب جداً.

قلت:

- «ولم هو غريب جدا؟»

قال:

- «ما يفعله، إنه يلف ويدور طوال اليوم، يلتقط الخادمات من على الأرصفة».

قلت:

«آه».

قال:

- «لا ليس كما تظن. إنه لا يلتقطهن لنفسه، ولكنه يأخذهن إلى غرف العزاب من معارفه في خيطان، أولئك العاطلين عن العمل».

قلت:

- «آه».

قال:

- «إنه يقوم بهذا العمل ليسري عن أصدقائه العزاب، يأخذ الخادمات إليهم، وهو الذي يدفع».

- «يدفع لمن؟».

- «يدفع للخادمات ليسري عن أصدقائه».

قلت:

- «آه».

قال:

- «أنت لا تصدقني؟، ألا تصدقني، لقد فعل هذا معي أنا نفسي حين كنت عازبا، جاءني بأكثر من خادمة و... إلى آخره».

قلت:

- «آه».

صمت جورج قليلا، ثم أوقف السيارة بجوار الرصيف حيث من المفترض أن أنزل، لكنه قال:

- «هل أنت غاضب مني؟»

قلت:

- «ولم أكون غاضبا منك؟».

قال:

- «ظننت ذلك، لكن الذي يجب أن تعرفه في نهاية القصة، أقصد معناها، أن مدرس الموسيقى هذا كان يستمتع وهو يتسمع أصوات الرجال والنساء وهم في الفراش داخل الغرفة، هذا كل ما في الأمر إنه رجل طيب».

قلت:

- «لا بد أنه كذلك».

وضعت قدمي على الرصيف. خرجت من السيارة. أغلقت الباب خلفي وفكرت: لا بد أنه رجل طيب. طيب بالفعل.

* خيطان: منطقة شعبية في الكويت، يسكنها العمال الوافدون.

القلب من الداخل

كانت سلوي قد تصببت بالعرق وهي تمشي في شوارع وسط القاهرة باحثة عن العنوان الغامض الذي جاء في الإعلان عن الوظيفة.

لكنها لم تكمل البحث،

ربما رهبة من المقابلة،

وربما لأن العنوان كان أكثر غموضا مما تصورت،

وربما لأن الفكرة التي تسربت إلى نفسها، منذ لحظات، كانت أكثر جاذبية من أي شيء خطر ببالها في الفترة الأخيرة: وجدتها فكرة نيرة ورأت أنها قد تكون هي الحلم الذى كانت تبحث عنه منذ فترة،

(ربما مذ فكرت في أنه أضحي عليها أن تبحث عن عمل، وتستقل بنفسها، فلا يعود عليها أن تمد يدها لأي شخص، خاصة أمها، التي كانت، هي نفسها، تعمل في مكتب بريد السيدة زينب، تختم الرسائل طوال اليوم، وتعود منهكة، خاصة بعد أن تأكد

لها أن والدها لن يرد على الرسائل العديدة التي أرسلتها له في الكويت، وربما يكون قد ذهب إلى السعودية، مع تلك المرأة التي قيل أنه تزوجها، كما لمّحت جارتهم أم صابر، ولا لأي أحد آخر).

قالت سلوي: لم لا أعمل مانيكانا في إحدى فتارين وسط البلد، أرتدي الفساتين، كل يوم فستانا مختلفا، أعرضه على جسدي الحي، بدلا من هذه التماثيل الميتة التي لا تحرك عينيها ولا شفتيها ولا أي شيء،

ولا أي شيء آخر،

آه،

لم لا ادخل هذا المحل الذي تبدو فتارينه وكأنها تحتل الشارع،

الشارع كله؟

(انتبهت سلوي على صوت شاب لمحته منذ فترة وكان يتابعها. ابتسم الشاب لها لكنها كشرت في وجهه وتحفزت. استمر الشاب في الابتسام لكنها تركت التلتوار، وتخطت الرصيف إلى الجهة الأخرى. نظرت خلفها بحذر فوجدته قد اختفي، لكن هذا لم يعد مهما في اللحظة التالية).

كان المهم بالنسبة لها أنها لمحت إحدى العاملات في ذلك المحل داخل الفترينة بالفعل. أصيبت برعشة فى جسدها كله،

(ولم تعد تهتم بذلك الشاب أو أي شيء، بل تخطت الرصيف وعادت مرة أخري إلى التلتوار الأول).

كانت الفتاة ترفع الفستان من جسد المانيكان النحيل الجاف، وتضعه جانبا، ثم أخذت في إدخال فستان جديد مصنوع من القطيفة الزرقاء. وألبسته جسد المانيكان.

زغردت سلوي فى نفسها:

- قطيفة.. زرقاء؟

إنه نوع القماش الذي تحبه.

إنه اللون الذي تعشقه.

لكن الفتاة التى انتبهت لها فاجأتها بابتسامة عريضة فلم تتمالك سلوي نفسها وأشارت للفتاة.

أشارت الفتاة لها أيضا، وسرعان ما وجدت نفسها داخل المحل في مواجهتها.

قالت الفتاة: نعم. أي خدمة؟

قالت سلوي. كنت أقول ماذا لو عملت أنا بدلا من المانيكان؟

قالت الفتاة: نعم؟

قالت سلوي. أقف طوال اليوم في الفترينة، أرتدي مثل هذا الفستان.

قالت الفتاة: ماذا تقولين؟

قالت سلوي. يعني بدلا من أن تعرضوا هذا الفستان الجميل

على مانيكان من الجبس. ألبسه أنا وأعرضه و...

التفتت الفتاة داخل المحل وأشارت لشاب.

(فكرت سلوي، لسبب ما، بأنه ربما يكون صاحب المحل).

ما أن جاء الشاب حتى انتحت به الفتاة جانبا وهمست في أذنه، ثم استغرقا في الضحك.

أحست سلوي بالحرج، فتراجعت، وخرجت من المحل، ومدت خطواتها بأقصى ما تستطيع من قوة كي تبتعد،

وما أن ابتعدت حتى أحست بالعطش، فاتجهت إلى أقرب محلات العصير وشربت كوبا من عصير القصب دفعة واحدة، وفي نفس واحد.

مسحت فمها بكف يدها وعادت تمشي بأقصى ما لديها من قوة، وما أن وصلت إلى مشارف السيدة حتى أحست أنها أصبحت في أمان، لا فقط من ذلك الشاب الذى كان يطاردها، ولا من تلك الهمسات التي أحست بأنها جرحتها، (لا في وجهها، أو ذراعا، أو جنبها، أو صدرها حتى، بل في قلبها نفسه).

قالت سلوي. عليّ أن أجهز نفسي بكذبة متقنة حتى تصدقها أمي.

وابتسمت:

- لن أقول لها بأنني فشلت،

.. سأقول لأمي بأن العنوان ضاع مني.

تمشية لطيفة في مكان آخر

كانت وفاء واقفة على قدم واحدة تنظر متوهة من النافذة إلى الخارج.

كانت وفاء على استعداد، دائما وأبدا، حتى وهي مازالت طفلة، أن تدفع أي شيء، من جسدها وروحها، من عقلها وقلبها، من أجل الخروج إلى الحدائق والميادين، إلى الكازينوهات والمقاهي، إلى السينمات والمسارح، وحتى إلى شقق الذين صاحبتهم من شباب السيدة زينب، ما عدا شيئا واحدا كانت تحرص عليه حرصها على أسرارها مع كل الذين عرفتهم، ولم تحب أحدا منهم بعد، هو ألا تخلع لباسها أبدا لأي شاب، مهما كان الأغراء، ومهما كان الثمن.

كانت هذه هي النصيحة الوحيدة التي حرصت عليها، من ضمن كل النصائح التي كانت والدتها تسردها على رأسها حتى الصداع، مذ بلغت، وظهرت عليها دماء الحيض، وقالت لها أمها أنها أصبحت الآن امرأة كاملة، قابلة للحبل، وأن خطأ من النوع

الذى وقعت فيه هناء، ابنة خالتها، التي تعيش بالقرب منهم في شارع السد، سيجعلها، لا فقط فريسة للرجال، ولا فقط عرضة للكلام في طول السيدة زينب وعرضها، بل أيضا سيتركها وحيدة بلا زوج، حتى تصل إلى جحيم العنوسة، وعندئذ، لن يحبسها لا والدها العاجز، أو والدتها الملحاح، ولا أخوها سليط اللسان حامل المطواة قرن الغزال، والذي ما أن يخرج من قسم البوليس حتى يعود إليه، ولا حتى أختها التي تزن ثلاثة أطنان ولا تكف عن الزعيق والصوات، بل سيحبسها الزمن نفسه ويتركها واقفة على محطة القطار، لكن ليس على المحطة فعلا، بل فى ركن الغرفة الداخلية الكئيبة، حائلة الجدران، تتخايل مع نشع الرطوبة على الحوائط، وعلى السقف، حتى تكتئب، وتدخل في الصمت الرهيب، بالضبط، كما حدث لابنة خالتها هناء المسكينة التي أضحت الآن تأكل الطين، وتعري نفسها من النوافذ، وتبصق على المارة، وشعرها مجعد ومنكوش، وعلى وجهها سخام كالمشردين.

كان التوهان قد أخذ وفاء إلى حد أنها لم تحس إلا وهي تسحب يدها من لباسها على وقع أقدام أمها: يا للهول. لو أنها رأتها. لو أنها ضبطتها. لو كانت.. ستدس يدها في صدرها وتدوس بكل عزمها. ستزغدها في جانبها الذى لا يكف عن إيلامها أيام الحيض الطويلة. أطول أيام حيض لأي فتاة عرفتها.

وتظل تتعذب وتتلوي. حتى أيام عملها الذي طردت منه، بسبب كثرة كلامها في التلفون مع الشباب، وغضب مدير المكتب الذي لا تعرف ماذا يدير بالضبط، على الرغم من أنها حاولت، لكنها كانت تري فتيات جميلات جدا، رشيقات جدا، يأتين ويخرجن، وهن يحملن ملفات تمنت لو عرفت ما بداخلها. تمنت لو حملت واحدا منها وتأبطته، كما تفعلن الفتيات الجميلات الشيك، لكنها طردت في النهاية في ظل ثورة غضب محمومة، لأنها، وهي عاملة التلفون، كانت تشغله طوال الوقت، ولكن ماذا كان عليها أن تفعل وهي تحب الخروج، وتدبر الحيل من اجله، والشبان يريدونها أن تذهب معهم إلى الشقق، وهي تحب الخروج، تحبه حتى الموت، تخرج وتتسكع على الكورنيش وفي يدها يد شاب، تضحك معه وتطلق النكات، آلاف النكات التي تحفظها عن ظهر قلب، وتتلذذ بحكايتها، تتلذذ برؤية هذا الشاب أو ذاك وهو يضحك، ينفجر في الضحك، ويقول لها أن دمها خفيف، وأنها فتاة ضاحكة، فتاة الضحك والخروج في نزهات لا تنتهي في الحدائق، وعلى المقاهي، وفي دور السينما، وقاعات الفنادق، ثم تمشية لطيفة خفيفة في مكان آخر، بعيدا عن جو البيت الضيق الخانق الكئيب، بعيدا عن صوات أختها زينب، وشخيط أمها زينات، وأوامر أخيها حمادة الذى لا يكف عن تهديدها بالمطواة قرن الغزال.

لكنها ها هي تجد نفسها الآن، مرة أخرى، حبيسة في البيت، غير قادرة على الخروج، لأنها يجب أن يكون لها عمل كي تخرج، ولأنها عاطلة عن العمل، فها هي تقف في النافذة تتطلع إلى أسطح منازل زين العابدين المكتظة بالنفايات تفكر في كل ذلك وليس أمامها سوى أن تختلس الوقت وتهرش في نفسها وهي تستحضر صورة دي كابرو بطل التيتانك حتى تحس بالسائل ينز منها وترتعش.

الملعب الطبيعي

(مهداة إلى أحمد البغدادي ومارسيل خليفة.. وصديقي إبراهيم عبدالعاطي أيضا)

في السادسة والربع تماما كان إبراهيم عبدالعاطي قد نزل من التاكسي أمام مقهى الحرية في ميدان باب اللوق، قادما من دار الهلال، بعد أن قضي هناك سحابة نهاره يبحث وينقب في الصحف والمجلات الصادرة طوال العام الماضي وحتى الأمس، محاولا معرفة السر وراء تغيير جري هذا الصباح في شارع محمد فريد الذي لا يبتعد سوي أقدام قليلة من المكان الذي نزل فيه من التاكسي، قادما من دار الهلال التي لا تبتعد بدورها كثيرا عن نفس المقهى التي دخلها الآن، حيران، لا يعرف أين يجلس، أو ماذا يشرب، أو إلى أي شيء يلتفت.

لكنه التفت دون قصد إلى المرآة العريضة المعلقة في الركن القصي من المقهى فوجد شخصا حزينا، في الستين من عمره،

خرج منذ شهرين إلى المعاش بعد أن قضي سبعة وأربعين عاما يعمل في دار الهلال نفسها. في المكتبة التي قضي فيها سحابة نهاره، ينقب عن السر الذي دفع عمال المحافظة إلى القدوم مبكرا في صباح اليوم نفسه.

رآهم حين خرج لشراء إفطاره وصحيفتيه، مصحوبين بعربة البلدية ذات السلم العالي، وظن لأول وهلة أنهم يقومون بتغيير لمبات المصابيح المطفأة منذ زمن، لكنه وجدهم يغيرون لافتات الشارع من الأركان.

يرفعون تلك القديمة التي اعتاد أن يلمح عليها، طوال عمره المديد الذي قضاه في نفس هذا الشارع، اسم محمد فريد، ويضعون مكانها لافتة جديدة تحمل اسم المذيعة التليفزيونية الشهيرة صفاء أبو السعود.

أخذته الدهشة بالطبع لهذا التغيير المفاجئ، فطلع إلى شقته، وضع الإفطار على طاولة الطعام في الصالة وفتح أولا صحيفة الأهرام بأسرع ما يستطيع باحثا عن خبر هذا التغيير لم يجد. تناول الأخبار وقلب صفحاتها بدقة. لا شيء.

قام إلى التليفزيون فوجدهم يبثون «صباح الخير يا مصر» والمذيعة صفاء حجازي تذيع الفقرة الإخبارية لكنها لم تشر للموضوع.

ذهب إلى الفراش وتمدد فاتحا الراديو فوجد صوت العرب

يبث فقرة غنائية استمع خلالها لأغنية عمرو دياب الأخيرة، أعقبتها أغنية لحكيم، ثم ما أن بدأت لطيفة أغنيتها حتى قطعتها المذيعة، التي لم يكن واضحا من هي، وقرأت الموجز دون أن تشير أيضا إلى شيء ما يشغل باله.

أطفأ الراديو وسحب الغطاء على جسده المتعب وغفي للحظات أيقظه الجوع منها، فقام إلى طاولة الطعام. حمل الخبز والجبن إلى المطبخ. وضع الماء علي النار وصنع كوبا من الشاي.

عاد إلى الصالة وجلس إلى مائدة الطعام وأكل قليلا من الجبن بالخبز.

عاد إلى تقليب الصحيفتين مرة أخري لم يجد شيئا.

فكر أنه كان عليه أن يذهب إلى دار الهلال ليسأل عما جري بخصوص صرف مستحقاته عن نهاية الخدمة. حسنا. هناك ربما عرفت شيئا عن الموضوع. لا لا شيء.

سأل ثلاثة صحفيين في المصور. ومحررة في الكواكب. ورئيسة تحرير حواء. لا لا شيء. بل أن الجميع نظروا إليه باستغراب. لأكف عن السؤال. ربما ظنوا أنني قد جننت.

صعد إلى المكتبة وقضي سحابة نهاره يبحث وينقب. لا شيء. نزل وركب التاكسي إلى حيث يجلس الآن في ركن المقهى. يدخن الشيشة ويرشف الشاي. ويتطلع بين لحظة

وأخري إلى وجهه الذي بدا له وجه رجل أكبر مما كان يظن. قال. ابتسم. فالناس سيظنون أن شيئا ما قد حدث لك. ونظر. كان يبتسم بالفعل. أخذ يدخن بإخلاص أشد، لكنه دون قصد، وجد إبراهيم عبدالعاطي آخر يجلس إلى الجهة الأخرى من نفس الطاولة التي كان جالسا إليها.

كان هو الآخر يدخن الشيشة ويرشف الشاي الأحمر في البداية لم يجرؤ علي تبادل الكلام معه، لكنه حين وجده يبتسم. قال يبدو أن الرجل بشوش هذا الصباح. كيف الأحوال. عال. كيفك أنت؟.ماشي. عملت إيه اليوم؟ لا لا شيء مهم.

تناولت.. أعرف. جبنا وخبزا. آه. هذه عادتك.آه. علي الرغم من أن عندك ضغط. يا سيدي. سيضر بصحتك. الله كريم. وأنت الآن وحيد ولا أحد يخدمك. ثم قرأت الصحف. كلها. لا الأهرام والأخبار فقط. ها. لا لا شيء. وشربت شايا. آه. وسمعت نشرتي أخبار. واحدة في التليفزيون. في صباح الخير يا مصر آه. والثانية في الراديو. في أي محطة. والله ما أنا فاكر. لا وسمعت أغنيتين ونصف. ونصف؟ آه لأن مذيعة الراديو قطعت الثالثة لتذيع النشرة. إنهم يفعلون هذا كثيرا هذه الأيام. وذهبت إلى دار الهلال وسألت. آه. لا شيء. سألت عن أي شيء؟ عن نفس الموضوع الذي حدثتك عنه من قبل. وآه. إيه الأخبار. لا لم يقوموا بعمل الإجراءات بعد. آه. هذه الأمور تحتاج. أقصد

تستغرق وقتا. آه. عندهم الكثير منه. لكن أنا وأنت؟ علي أي حال. ما رأيك في أن نتمشى في وسط البلد نبصبص علي النسوان؟ لا أنا أريد أن أجلس هنا. صحيح نسيت أسألك؟ عن أي شيء؟ أليست صفاء أبوالسعود هذه مذيعة تليفزيونية؟ آه وراقصة أيضا وغيره. ماذا تعني بغيره؟ فنانة شاملة يعني. آه. وغنية جدا جدا. آه. طيب أتركك أنا الآن للشيشة. مع السلامة. مع السلامة.

دفع الحساب لشخصين وخرج إلى الطريق.

لكنه بعد خطوات وجد نفسه متعبا جدا.

أكثر مما يجب.

أكثر مما يمكنه معه التمشية في وسط البلد للبصبصة علي النسوان. فقفل عائدا إلى شارع محمد فريد الذي أصبح منذ الصباح شارع صفاء أبوالسعود. إلى البيت. إلى السرير

حيث يصبح الفراش هو المكان الطبيعي في مثل هذه الأحوال من التعب.

قصة أخرى

كان يجلس وحيدا طوال النهار، وقد دخل عليه الليل، ولم يكن يفعل شيئا سوي الجلوس علي المقعد ليري المارة، ويتابع الفتاة التي كانت هي أيضا جالسة في الشرفة المقابلة، غير أنه لم يكن متأكدا من أنها تحس الألم بنفس الطريقة التي يحس بها وحدته، لأنه لم يكن تكلم معها، ولم يعرف عنها شيئا، ولكنها كانت تبدو وحيدة، ولم ترفع وجهها إليه، غير أنها لم تكن تبدو مستغرقة في القراءة بالفعل، لأنها كانت تقلب الصفحات بشكل منتظم، وفي وقت أقل مما تستغرقه قراءة أي صفحة من أي كتاب من أسهل الكتب، لكنها عندما رفعت وجهها ناحيته، ورآها، بدت حزينة بالفعل، وربما من أولئك الذين صادفتهم الحياة بوقائع مؤلمة، وبدت أنها تجاوزت الثلاثين، ولم يكن يرى رجلا جالسا معها، وكان هو في الخامسة والثلاثين، ولم تكن بجواره أي امرأة أيضا، ففكر أن يكلمها، لكنه لم يفعل، لأنه كان يخشى أن يتسبب ذلك في قصة أخري، تؤدي به إلي أن يتألم مرة أخري،

وفضل أن يظل جالسا في وحدته، علي أن يأتي أمرا لا يضمن عواقبه، ولكنها ما أن تركت مقعدها، ودخلت، حتى أحس كأنه افتقد شيئا، لأنها كانت الفتاة الوحيدة التي تبدو علي مرمي النظر، ووجد أن جلوسه أصبح مكرسا لانتظارها، غير أنها لم تعد، وطال الوقت، وظل منتظرا، حتى جاء أحمد وقال له أنه لم يكن مقدرا أن يأتيه، لأنه لم يمتلك الوقت، غير أنه جاء، لأنه يخشى أن يتركه وحيدا، وأن ذلك ربما أشعره بالذنب، وأحس هو أنه ربما كان يحس الآن بهذا الذنب، لأنه لم يكن قد كلم الفتاة، ووجد نفسه يحكى لأحمد قصتها، ولكنه لم يتركها دون رتوش جعلتها أكثر تشويقا مما لو أنه حكاها مجردة، هكذا، لأنه كان يأمل في أن يخلصها من الملل، لأنه خشي أن يعيد إلى صديقه حالته التي كان يعانيها منذ بضعة أيام، حتى جاءته بعض الأشغال التي أخذت منه وقته، ولم يعد يفكر في آلامه، ولم يكن قد جاء إلى نهاية القصة التي وضعها عن الفتاة، حتى أمسك صديقه أحمد بزجاجة الخمر التي كان قد أتي علي نصفها ليلة الأمس، وتجرعها دفعة واحدة، ودخل الحمام، ولم يكن قد مضى كثير من الوقت حتى أدرك أن صديقه أحمد قد أجهش في البكاء.

اللاعب

كان يوسف الكاشف قد عاد إلي أرض الملعب بعد سبعة شهور قضاها في العلاج، ست منها قضاها علي سرير المستشفي، وشهر كامل في إعادة التأهيل، لكنه الآن وهو يجلس علي «دكة» الاحتياطي علي جانب الملعب، كان يحس بحرج شديد، ربما لأول مرة في حياته، لأنه يجد نفسه جالسا علي هذه الكنبة التي طالما هددت مستقبل لاعبين آخرين بعضهم لا يقل موهبة عنه ولا شك، وكان يأمل أن لا يجد نفسه في موقفهم، فعمل أقصي ما يستطيع من جهد لتفادي إصابة تضعه في هذا الموقف الصعب، لكن دفاع الخصم تعمد ضربه في ساقه اليسرى بمقدمة حذائه، ضربة بدت متعمدة شجت عظمة الساق، ومزقت رباط الركبة، لكنه، لحظتها، لم يحس بالألم الذي أحس به فيما بعد في جانبه الأيسر، لأن صياح الجماهير غطي علي كل شيء، بما فيه هذا الألم الغريب الذي احتار فيه الأطباء، مما استدعي أحدهم للقول بأن الألم في داخله أكثر منه أي شيء آخر

كان هدفه الثالث قد قضي نهائيا علي أي أمل للفريق المنافس للحاق بفريقه في مباراة الختام لكأس الجمهورية لكرة القدم، لأن الهدف الثالث جاء في الوقت الحرج، قبل نهاية المباراة بعشر ثوان حبست خلالها الأنفاس، لأن الفريق المنافس كان قد سجل هدفين، وكان يلعب بقوة ونشاط، يتناقل الكرة بين أفراده بلا انقطاع، وكان أعضاؤه ينتظرون مكافأة من عدة ملايين خصصها (ك. س) المليونير صاحب الفريق الخصم الذي كان قد اشتراه منذ عدة أشهر وتعهد للجماهير أن يتفوق فريقهم علي كل الفرق في عهده الجديد.

كان قد رأي هذا المليونير من قبل في إحدى الصحف فأحس بأن ساعة نحس قد حلت بحياته، لكنه حين رآه، حقيقة وفي الواقع وهو يصافح (ج. ج) مدير التسويق لفريقه، في زيارة مريبة للنادي،تحسّب لها كل من رآه وأضحت حديث الفريق لعدة أيام، لكنه، هو،تخيل للحظة بأنه قد أشار إليه،و تحامل علي نفسه وأجري حوارا من تلك الحوارات الساخنة التي يجريها مع (س. س) حبيبته السابقة التي لم يكف يوما، بعد الزواج أو قبله، علي استحضارها في ظل حلم اليقظة المستمر ويكلمها بالأشياء التي لم يكن يجرؤ يوما علي الحديث حولها مع زوجته السابقة من قريب أو بعيد.

قال. ربما كان يعرض عليه انتقالي لفريقه، ربما يرغب في

انضمامي إلي رعايته وإنقاذي مما أنا فيه من وضع حرج.

لم يكن هذا الوضع الحرج، فقط لاحتياجه للمال حتى يغطي نفقات ابنتيه تيا وتانيا اللتين تعيشان مع مطلقته (س. ل)التي لم تحتمل وضعه الذي ارتأته بعد إصابته ودوام صراخه من الألم الذي لا يحتمل في جانبه الأيسر وطلبت الطلاق « لإنقاذ نفسها ومستقبل ابنتيها» كما قالت، بل لأنه أيضا كان قد تصرف في حياته كلها علي أساس أنه سيستمر فترة أطول في اللعب، وأن ما يراه من إشارات بدت كخطط مدبرة تعمل علي قذفه في الزاوية المظلمة من الحياة، وهو الذي ذاق طعم النور يوم كان العشرات يتحلقون حوله، يوم لم تكن هناك هذه النظرات الساهمة، يوم كان الجميع يطلبون وده، يوم لم يكن في مثل هذه الدوامة التي حذرته منها حبيبته (س.س) وهي تشير بأنها تخشى أن تقوده إلى طريق لا تحمد عقباه: الارتماء في زاوية العزلة، أو سماع أصوات غريبة تدوي في أذنيه تلهج باسمه كرجع صدي لحالة من التيه.

أحس، فجأة، بقبضة يد تهز كتفه فانتفض متأهبا للرد، لكنه فوجئ بـ (ق. م) مساعد المدير الفني للفريق، وكان يراه رجلا مختلفا علي الرغم من تقدمه في العمر، وحبه لمهنته، إلا أنه كان يعيش في الظل، لا تتحدث الصحف إليه كثيرا، وإن كان قد أعده

دائما سندا من نوع ما، يلجأ إليه في لحظات حرجه.

كان (ق. م) قد قال كلمتين بالكاد:

ـ آه. جاهز ؟

ولأنه لم يكن ينظر إليه مباشرة في عينيه، كما كان في السابق، أحس بأن كلماته ما هي إلا من قبيل مجاملة رجل طيب لم تلوثه الشهرة السائدة هذه الأيام، كما أنه لا يحصل من مهنته ألا ما يكفيه ليعيش مستورا بالكاد.

قال:

ـ بالنسبة لك. أنا..

لكنه لم يستطع إكمال الجملة، لأن (ق. م) نفسه نحي وجهه عنه وراح يتطلع لـ (ع. ع) لاعب الوسط الذي كان قد خطف أنظار الجمهور بحركاته البهلوانية التي أضحت، مؤخرا، مثارا لوضع اسمه في أعلي صفحات اللعبة في الصحف السيارة.

لكنه ضبط نفسه يبتسم علي كل حال، وما يشبه صوت (س. س) وهو يعاتبه علي هذه البلاهة، فأحس بألم جانبه الأيسر يعاوده، لكنه لم يستطع أن يمد يده إلي مكان الألم،خوفا من أن يلفت نظر أحد الجالسين بالقرب منه، خاصة زملاءه من لاعبي الاحتياط، الأمر الذي لم يكن سيغفره لنفسه، لذا فضل هو نفسه متابعة لاعب الوسط الذي لا يريد اسمه أن يثبت في ذاكرته، وهو يفقد الكرة، بعد حركاته البهلوانية الطويلة التي لم تنته بأي هدف

وإن كانت الجماهير قد هتفت لها بشكل جنوني.

أعتدل في جلسته وأشار لأحد الأشبال الذين يحملون زجاجات الماء فاقترب تجاهه ومد يده له بواحدة وهو يبتسم، وسمع صوت الصبي، بالكاد، وهو يطلب منه النزول لمساندة فريقه الذي يحبه، وهو علي وشك هزيمة ساحقة، لكن ضجيج الجماهير غطي علي كلماته فلم يتبينها جيدا، وبدا الصبي غاضبا وهو ينظر للجهة الأخرى، لكنه، هو، تجرع جرعة زائدة، فقفزت زجاجة الماء من يده، وانسكبت علي الأرض، وراح في نوبة طويلة من السعال، والغريب أن أحدا لم يلتفت ناحيته: لا الصبي الذي انصرف إلي متابعة المباراة، ولا أحدا من الجالسين بجواره من أعضاء فريق الاحتياطي، ولا حتى من الإداريين، ولا حتى الجماهير المحتشدة في المدرجات، وفكر للحظات بأنه ربما يكون قد فقد بصره، لكن هذا الهاجس الذي لازمه مؤخرا، وتمناه حين شعر بالغصة في قلبه، كان أبعد من أن يكون حقيقة، لكنه استعاد أنفاسه بصعوبة، وراح ينظر لما يجري حوله، لكنه لم يكن يستطيع تبين أي شيء أو شخص، لا اللاعبين في أرض الملعب ولا حتى الجماهير المحتشدة، لأنه كان يري جيدا، يري بوضوح، ربما أكثر من اللازم، أكثر مما كان يري أي شيء منذ إصابته التي لم يكن له يد فيها، لا، بل قبلها، حين أحس بأن هناك مسافة تفصله عما يجري من حوله، مسافة جعلته يحس بأن تلك

الشهرة التي حققها أيام لمعانه، قد فرضت عليه أن يتحول من هذا الشخص إلي شخص آخر، لم يكن يعرفه، كما لم يكن يريد أن يكونه، ورفض، بكل حماقة، أن يخضع للضغوط التي لم تمارسها عليه فقط زوجته السابقة (س. ل)، بحجة ضرورة أن يقتنص الفرصة، ويبدأ في النظر إلي مستقبل طفلتيه بعين مختلفة، بل مارسها عليه حتى مدير التسويق الذي أراد أن يضعه علي قائمة اللاعبين المعروضين للبيع في بورصة النجوم، وكان هو ينظر للأمر بطريقة أكثر بساطة من كل هذه الأمور التي بدت صعبة عليه.

أنت تحب هذا الشيء فتفعله، وتمضي في ذلك حتى. لا. إن الموضوع قد بدأ فعلا بمجرد ظهور الدكتور (ق. ق) في حياتك علي الأرجح، لا، قبلها بقليل، حين واعدك زميله الدكتور، (ط. ط) في كافتيريا الشيراتون وعرض عليك عرضا غامضا، لم تعرف أنت ماذا يقصد، فأردت أن يكون أكثر وضوحا، فأكد أنه واضح جدا، لكنك أصررت علي أنك لم تفهم شيئا، وأنه غادر غاضبا، وكانت (ي. ي) قد اتصلت بك قبلها في منتصف الليل، من وراء زوجتك، وأخذت تتكلم وتتكلم وأنت صامت، أبو الهول، تذكر ؟ نعم. لكن كيف عرف الآخرون بأمر أبي الهول هذا ؟ أنت تمسك بيدك شيئا، لا، أنا أراه داخلي، لا، في

يدك، المهم، خرجت من البوابة، والكل يحدق في حقيبتك التي كانوا يظنون أن بها عدة السحر، وأنت كنت تظن أن الموضوع أبسط من ذلك، وأنك ستستمر في اللعب لأنك تحب أن تلعب، وأن نفسك تضيق بأي أعباء يمكن أن يسببها حبك للعب، وأنه يكفيك أن تكون مهموما، بالفعل، بذلك الهم الذي تفرضه عليك ما يسمونها «الموهبة».

لكن اتضح، الآن، وأنت تجلس علي دكة الاحتياطي بأن الموضوع هو غير ذلك تماما، وأن هناك شروطا أخري، لكي تستمر في التألق، وما هو هذا التألق، لم تكن تعرف ولا تريد، إن الموضوع هو أكثر بساطة من كل ذلك، وأن كل الزمن الذي توهمت فيه أن المسألة ستستمر علي النحو الذي ارتحت إليه من أن الموضوع بسيط للغاية، وأنك لا تستطيع الدخول في تعقيدات الوضع الجديد الذي يفرض عليك بناء سياج يحميك من الغيرة التي تنضح بها الوجوه من حولك لم تكن مجرد أوهام، بل حقيقة، كانت شيئا حقيقيا وقاتلا إلي حد أنك تري الآن أن إصابتك لم تكن مجرد خطأ جري عفو الخاطر، ولكن المسألة.زززز.

ـ لا، ليس معقولا، أنت تفكر علي هذا النحو ربما لأنك حساس أكثر من اللازم ؟

ـ لكن كيف يمكن تفسير أن كل هذا قد حدث في نفس

الوقت ؟

ـ ربما مسألة الزمن. أنت ربما تحس بالزمن بطريقة أكثر من اللازم.

ـ لا. أبدا. أنا لم أعط للزمن أي أهمية علي الإطلاق، لم أعطه أهمية طوال حياتي. أبدا. أبدا.

ـ وهذا خطأ أيضا، إنه لا يجب أن لا يكون لديك إحساس بالزمن، خاصة وأن اللاعب لا يستطيع أن يلعب طوال حياته، فعمره محدود في الملاعب، لكن أن يكون إحساسك به بطريقة إيجابية.

ـ إيجابية ؟

ـ آه. إيجابية. وماذا في هذا. الجميع يحسبون المسألة علي هذا النحو أو ذاك.

ـ لكن هذه طريقة..

ـ مركبة. غير طبيعية. وحتى غير إنسانية.

ـ لا هذا ليس في اعتباري. أنا لا أحب هذا الكلام الكبير

ـ لكن هذا الكلام الكبير موجود أيضا. هل تنكر أنه..

ـ لا أنكر. لكن أنا أنظر للأمور بطريقة مختلفة.

ـ هل أنت إله يعني ؟

ـ لا أنا..

ـ أنت مثلك مثل الآخرين. والأمور هذه الأيام تشتغل علي

هذا النحو.

ـ هذا النحو ؟ هل علّي أن أتخلي عن موهبتي مثلا ؟

ـ لا أنت فقط تستغلها. لا أقصد. ربما كانت هذه كلمة غير مناسبة، أقصد أن ترتب الأمور بناء علي هذا الجو.

ـ أي جو تقصدين ؟

ـ الجو. الجو الموجود..

ـ أي جو موجود.

ـ لقد أضحت الأمور هذه الأيام أشبه بعملية ضخمة. معقدة،وفيها أطراف عديدون. فيها أنك يجب أن تتواجد دائما في المكاتب، وأن تتواجد في الاستوديوهات، وأن تتواجد أحيانا، حتى، في بعض الأماكن التي ربما لا تحب أن تتواجد فيها، لكنك يجب أن تفعل.

ـ وكيف يمكنني أن أتواجد في كل هذه الأماكن،ثم أتواجد في نفس الوقت، كل الوقت،في الملعب ؟

ـ لا أنت في هذه المرحلة من الزمن لا يجب أن تتواجد كل الوقت في الملعب، يكفيك بعض الوقت، لكن التواجد هنا وهناك هو أمر ضروري وحاسم. صدقني. وأيضا، أنت تجد أن عليك أن تلتقي بعض الناس.

ـ الناس ؟

ـ نعم الناس، وقد لا يروقك أن تتواجد مع بعضهم، أو معهم

كلهم لكنك..

ـ يجب أن ألاقيهم.

ـ ليس ضروريا أن تلاقيهم بهذا المعني، أي أن تكون علاقتك بهم حميمة. بل مجرد أن تراهم.

ـ أو يروني ؟

ـ مثلا. رؤية الناس، هؤلاء الناس، هذه الأيام شيء مهم. مهم للغاية.

ـ وماذا لو كنت مثلا إنسانا إنطوائيا أحس العزلة في داخلي ؟

ـ أنت إنسان انطوائي ؟ أنت إنسان اجتماعي جدا.

ـ لكنني في داخلي انطوائي.

ـ في داخلك انطوائي هذا شيء آخر. بينك وبين نفسك يمكن أن تكون أي شيء، أنت حر،لكنك مع الناس أنت شيء آخر، أنت الآن إنسان مشهور.

ـ مشهور. وماذا في هذا ؟ ؟

ـ فيه وفيه. الإنسان من هذا النوع إنسان آخر مختلف.

قال: آه.

وأحس بأن هذا الحديث هو الذي يجعله دائما علي حافة الرعب من الخوف.

الخوف من أن الزمن يمر، وأنه يكبر، وأن مستقبله كله علي كف عفريت.

لكن ترتيب الأمور، وتواليها، بانتظام، كأنها خطة محكمة تضيق عليه الخناق، هو ما أضحي يثير قلقه أكثر من أي شيء آخر، ربما أكثر من قلقه من المستقبل، وأن، حتى، حديثه مع (س. س) ما هو إلا نتيجة طبيعية لتردده تجاه الموضوع الجوهري.

ـ أنت تقاتل، تقاتل حتى النهاية، ترفع سلاحك عاليا وتوجه طلقاتك للعدو، لأنه هو نفسك يتأهب لقتلك، أما هذا الذي حلمت بأن يكون سلاما، سلاما حقيقيا حيث تجلس علي حافة البحيرة، وتدلدل قدميك في الماء، تتطلع للنوارس، وتراقب الطيور المهاجرة، وتنظر لمشهد الغروب في سلام فإنه يجعلك من صنف الناس الواهمين بأن العالم ما يزال مكانا آمنا للذين لا يريدون سوي أن تستمر الحياة بأكبر قدر من الهدوء.

أنظر.

أنت تسمع الطلقات، تسمع أصوات الجرافات وهي تهدم بيوت الضحايا، تسمع آلات القتل تدوي في ربوع الأرض، تسمع المقاتلات وهي تخترق جدار الصوت الذي يدوي هناك في الأفق، فكيف لك أن تنظر ولا تري ؟

ـ إنني أري كل شيء، أراه بكل وضوح، ربما أكثر من اللازم.

ـ إذن عليك يا يوسف أن تقف وتغادر هذا المقعد الكئيب، وهي الطريقة الوحيدة التي ليس لك طريقة أخري غيرها لكي تتخلص من هذا الموقف الصعب.

زهرة واحدة في المدينة

كان مصطفي يمشي الآن الهوينى في شوارع القاهرة غير عابئ بشيء، بعد أن تأكد من أن مشاعره، هذه المرة، لم تخنه، وأن حب ناتاشا قد تمكن منه لدرجة أنه لا يزال يحس بطعمها في فمه، ويده، وأحضانه، علي الرغم من أن اللقاء نفسه لم يستمر سوي ثوان، لحظات، ابتسمت خلالها ناتاشا واقتربت منه، وقالت بعينيها الخضراوين، وهي تخلع وشاح الرقص عن جيدها المياس.

ـ «أووه.. أنت»،

وظن للحظة أنها ربما كانت تقصد عزفه، لكنها حين أغمضت عينيها برمشها الأصفر، وهزت شعرها الأشقر، تأكد، بعد أن دق قلبه ودق، بأنه هو الذي كان مقصودا لذاته، ربما يكون عزفه قد سحرها، أخذ بلبها، لكنه كان فقط مجرد مدخل إلى.. ماذا يقول مصطفى العاشق الآن وهو يمشي في المدينة.

كان قد وصل إلى الكورنيش، وتطلع إلى العشاق المتعانقين

علي الرصيف، وفي القوارب المتهادية علي سطح النيل، وقال إنها ربما هي فكرة أن يدعو ناتاشا إلى النزول إلى النيل، يسبحان معا عكس التيار، أو يكتفيان بإنزال أقدامهما إلى الماء، وهما يجلسان علي النجيل، في تلك البقعة الناتئة من الحديقة، والأولاد يلعبون خلفهما في يوم صاف.

لكنه أحس بما جعله يشعر وكأن قلبه قد خطف، لم يجد آلته في يده، علي الرغم من أنه كان متأكدا من أنه حملها معه قبل الخروج من قاعة الأوبرا.

ماذا يفعل مصطفي الآن وهو يمشي في المدينة؟

كان مصطفى قد أحس بحزن شديد، وأن الأقدار، ربما، بدأ تلعب ضده لعبة غير متكافئة، وأنه وإن كان قد تأكد دوما من أن ذاكرته لم تخنه يوما، إلا أنه كان ـ الآن ـ متأكدا من أن آلته ليست معه، وأنه ربما يكون قد نسيها في مكان آخر، وربما انزلقت من بين يديه، وأنه ربما يكون قد فقدها إلى الأبد، وان ذلك ربما يكون مقصودا حتى ينشغل عن التفكير في ناتاشا، وأنه، على الرغم من أنه استمر في المشي إلى الأمام، إلا أنه نظر بغضب إلي المدينة.

قال مصطفى أن تشوش فكره قد يكون بسبب أنه لم يأكل منذ الصباح، وأنه بمجرد أن تمتلئ معدته فانه سيعود إلى حالته الطبيعية، وأن عليه أن يقاوم كل شيء، وأن يمشي ويمشي حتى يصل إلى بيته، وأن عليه حتى أن ينسي أمر آلته، وأن عليه الآن أن

يستعيد صورتها هي وحدها، لا يري شيئا آخر: إنها ترقص الآن أمامه في وشاحها الخفيف، وهو يعزف خلفها بكل روحه حتى لم يعد يري أحدا غيرها في المدينة.

تلك الأشجار التي تلتقط الحمام الزاجل

كانت ليلي ترتعش وهي تدخل مكتب بريد السيدة زينب بعد انقطاع دام أربع سنوات لتشتري طوابع، حتى أنها سمعت أصوات خلاخيل في قدميها، وهي التي لم تكن ترتدي سوي شبشب خفيف من البلاستك، بل إنها سمعت أصواتا نازلة من سقف المكتب مثل أصوات قرقعات طبول الهنود الحمر التي ما برحت تسمعها منذ ليلة الأمس، بعد أن ودعتها جارتها سلوي (الطالبة في الجامعة) وأخبرتها عن أكبر الأسرار التي أخبرتها بها في حياتها كلها.

قالت سلوي، وهي تخرج من حقيبة يدها مجموعة من الأوراق البيضاء، أن عندها الآن كثير من الأصدقاء عبر «العالم كله» (كما قالت) وأنها تراسلهم عبر الإنترنت، وأنها تقضي الليل كله أمام الكمبيوتر تتحدث مع صديقاتها ذوات العيون الزرق والشعر الأصفر؛ ووعدتها بأن تستضيفها ذات ليلة لتراهن بنفسها.

كانت ليلي تعرف أن صديقتها سلوي كذابة كبيرة. طوال عمرها كانت تكذب عليها، حتى أنها قالت أنها ماتت، وذهبت إلى الجنة، ورأت الملائكة، ثم عادت في الصباح التالي. وما فضحها حقا أنها ادعت ذات يوم أن أحمد زكي (الممثل المشهور) وقع في غرامها، وأنها هي أيضا تحبه، وأنهما يلتقيان كل مساء في كافتيريا الشيراتون، ثم اتضح بعد ذلك أن أحمد زكي هذا ما هو إلا زميلها في الكلية، وأنه ابن أحد الجزارين في المدبح، والشيء الصادق الوحيد في تلك القصة أن اسمه كان بالفعل أحمد زكي.

لم تنم ليلي ليلة البارحة إلا غفوات متقطعة.

أخذت تتقلب في الفراش، علي الرغم من أنها ألقت بنفسها علي السرير بعد أن أنهت السهرة مع والدتها وأختيها، بعد مشاهدة المسلسل، والفيلم العربي،كما كانت تفعل كل مساء بانتظام، وهي تجلس علي الكنبة الأسطنبولي، تحت صورة والدها عامل الإطفاء، الذي توفي في الزلزال الأخير

راحت ليلي، بين فترة وأخري، تتطلع من الشرفة إلى جارتها سلوي، ابنة سمسار العقارات، وهي تبدو جالسة أمام الكمبيوتر، من خلف النافذة المسدلة الستائر، والضوء الخفيف يلفها في غلالة من الخيالات التي راحت ـ ليلي ـ تري فيها وجوها شقراء تتزاحم،وكأنها تسبح في سماء مطلية من وسطها بالأزرق الفاتح،

وتلف حوافها غيوم بيضاء، وهناك في الخلفية،كانت ملصقات لنجوم السينما، الذين لم تكن تعرف أسماءهم، لكنها كانت تعرف كلا منهم بأنواع الأفلام التي يؤديها، ولمحت منهم ذلك الممثل الذي كان يظهر دوما راكبا فرسه في البراري، يطارد الهنود الحمر، ويجز رقابهم،ثم يرشف الويسكي الذي ينسكب علي سترته الجلدية، ثم «يتكرع» بفظاظة.

لملمت ليلي ملاءتها حول خصرها اللدن الذي كان يسبب لها لفت الأنظار، وتقدمت ناحية شباك بيع الطوابع، ومدت يدها بالجنيهين اللذين استطاعت توفيرهما لهذه المهمة الغامضة، وبقدر ما استطاعت من جدية، طلبت من البائع أن يبيعها طوابع.

ولا تعرف ليلي كيف مرت الدقائق التالية كأصعب عشر دقائق مرت بها في حياتها، ربما باستثناء الدقائق التي عرفت فيها نتيجة امتحانها في الثانوية العامة، وانتهت بها أحلامها في استكمال دروسها، وجلست بعدها في البيت، تعد نفسها لتكون زوجة لرجل لا تعرفه حتى الآن.

كان بائع البريد يريد أن يعرف منها ماذا تريد بالضبط. ما نوع الطوابع؟ وهل تريد مراسلة الشخص في الداخل، أو الخارج ؟، وما إذا كانت تريد الرسالة مستعجلة أم غير ذلك ؟

ولم يكن لدي ليلي بالطبع أي إجابة عن أي سؤال، فوجدت نفسها في دوامة من المياه الساخنة، حتى أنها أحست بأنها تغرق

في بحيرة من العرق الساخن، بل إنها دخلت في زجاج باب مبني البريد، ثم انكفأت علي ركبتها، ثم لم تحس بأي شئ سوي أنها وجدت نفسها وسط باعة الحمام في سوق الحمام، وقد أفزعتها صيحاتهم، فاستيقظت من الكابوس.

تذكرت ليلي أن كل ذلك قد حدث لأنها كانت، حين استيقظت من غفوات النوم المتقطعة التي أرهقتها طوال الليل ـ، بعد كل إطلالة علي نافذة سلوي، حتى انطفأ الضوء، ولم تعد تري سوي الستائر، وقد بدأت الخيالات تبدو بوجه عجوز يشبه وجه «الداية» أم سيد، الذي لا يمكن أن تنساه، مذ قامت بقطعها من أسفل حتى أدمتها، فارتعشت، وأقفلت الشرفة، وتمددت في السرير الذي أحست وكأنه كفن له رائحة عطر رخيص.

تذكرت ليلي أن كل ذلك قد حدث لأنها تذكرت أنها هي نفسها كانت قد جربت مراسلة باب بريد التعارف في مجلة «الكواكب»، وأنها دأبت حين كانت في المدرسة الإعدادية علي الانتظام في الكتابة إلى المجلة، لكنها أبدا لم تتلق أية رسائل، فأحبطت، وكفت عن المكاتبة.

لكنها، الآن، وهي تحس بالغيرة تنهش كبدها من سلوي، قررت هذا الصباح أن تعيد الكرّة مرة أخري، لا عبر الكومبيوتر، كما تفعل سلوي، لأنه لم يكن لديها واحد، ولا عبر مجلة «الكواكب «، بل عبر مجلة أخري تسمي «نجوم اليوم»، لكنها

هاهي الآن تجد نفسها في سوق الحمام، في نهاية شارع السد. وسط هذه الصيحات المجنونة.

قالت ليلي: كيف لي أن أعود إلى البيت وأنا في هذه الحال ؟

ماذا أقول لأمي وهي التي تنتظر مني أن أعود بطوابع البريد التي رجوتها أن تغفر لي شراءها علي أمل غامض بأن يكون هذا حلا لمصير غامض ؟

قالت ليلي. لكنني ماذا أفعل ؟ وأين أذهب ؟

مشت ليلي في اتجاه البيت، ذلك المكان الوحيد الذي يمكن أن تلتجئ إليه حتى يأتي ذلك الشخص الغامض الذي ربما انتزعها من مصيرها الغامض، لكنها فكرت أنها ربما كان من الأفضل لها أن تذهب إلى حديقة البلدية الواسعة في أطراف السيدة زينب، وأن تتمدد هناك تحت الأشجار، لعل حمامة من الحمام الزاجل الذي يحوم فوق الأشجار، تقف علي ذراعها الأبيض العاري، وتمد لها منقارها برسالة من هناك.

تليفون

عاد ثروت من عمله متعبا جدا واتجه فورا إلى الحمام وفتح صنبور البانيو الساخن، ثم فتح الصنبور البارد، وما أن وجد حرارة الماء محتملة حتى عاد إلى غرفة النوم وخلع ملابسه وعاد ليلقى بكل ما خلعه في سلة الغسيل وكان البانيو قد امتلأ تقريبا، فغطس في الماء الدافئ وأغمض عينيه على الرغم من أن ضوء الحمام كان خفيفا جدا، إلا انه أراد أن يتخلص من كل إزعاج عاشه في يومه الطويل الذي يبدأ في العاشرة صباحا ولا ينتهي إلا في العاشرة ليلا، يقضيه في عمله الممل الذي لم يكن أمامه سواه، الأمر الذي جرده من روح الدعابة التي كانت تنتابه كل يوم تقريبا قبل التحاقه بذلك العمل الذي بدأ يحس، بعد مرور عام، انه قد أخذ ينهش روحه، خاصة وأنه كان يرى أن الجميع لا يعملون إلا هو وشخص هنا أو هناك يعملون في صمت ودون كلل: بعضهم لأنه يحب عمله، وبعضهم لأنه يدعى أنه يحب عمله، وشخص آخر مثله عرف بعد عدة أشهر أن اسمه ثروت أيضا، ولا يحب عمله، لكنه لا يجد حلا آخر

- ٢ -

حاول ثروت وهو غارق في الماء الفاتر أن يجرى تمارين التنفس لكي يسترد ما راح، لكنه بعد نصف محاولة توقف، وحاول أن يكف عن التفكير ليقلل من ضغط التداعيات في رأسه، لكنه فشل، وحاول أن يصرف نفسه بعيدا، إلى أي شيء مختلف، لكنه لم يجد ذلك الشيء المختلف، وأحس وكأن ماسا كهربائيا سرى في جسده وجعله ينتفض خارجا من البانيو الذي فاض بمائه الفاتر على جانب واغرق أرض الحمام.

انزلقت قدما ثروت وسقط فارتطمت رأسه بحافة الحوض نصف الممتلئ بالماء المختلط بعكار الصابون الذي فقد رائحته.

- ٣ -

وقف ثروت والألم يكاد يفجّر جبهته التي سرعان ما ورمت وبدت محمرة.

قال ثروت: سرعان ما تزرق الآن.

لكنه تحامل على نفسه، وأمسك بالمنشفة وأخذ يحسس بها على وجهه وشعره،وبقدر الإمكان أحس انه تخلص من أكبر قدر من البلل، فعاد إلى غرفة نومه واستلقى على الفراش.

-٤-

حاول ثروت أن يغلق عينيه كي ينام لكنه لم يستطع، وحاول أن يصرف النظر عن تلك الأفكار المزعجة التي أراد مرارا وتكرارا أن يصرف نظره عنها لكنه عجز عن ذلك.

قام ثروت لأنه لم يستطع أن يطيل البقاء في الفراش، وارتدى ملابسه الداخلية ثم نثر تحت إبطه قليلا من العطر، لعل وعسى، وخرج إلى الصالة وفتح التليفزيون وأخذ يبدل ويغير في المحطات، لكن لم يجد شيئا يجذبه للفرجة عليه.

قال ثروت: ربما أنني الآن غير قابل للفرجة.

وأغلق الجهاز وجلس على مقعد غير مريح ليتحدث في التليفون.

- ٥ -

طلب ثروت رقم والدته لكن يبدو أنها لم تكن هناك، أو أنها كانت نائمة، أو ربما..

قال ثروت: هي مريضة على أية حال.

وضع السماعة وأعاد طلب سلوى التي لم يكن قد تحدث معها سوى مرة واحدة منذ أعطته صورتها ورقم تليفونها قبل شهر، لكنه وضع السماعة لأنها كانت قد حذرته. لا ترد إذا سمعت صوت أبي.

- ٦ -

عاد ثروت إلى غرفة النوم وأمسك بالكتاب الذي كان مفتوحا على الصفحة السابعة منذ عدة أسابيع، لكنه لم يستطع قراءة الكتاب، أمسك بالصحيفة لكنه أكتشف انه كان قد قرأها في الصباح.

عاد ثروت إلى الحمام ونظر إلى المكان الذي كان قد سقط فيه.

وجد صورة سلوى غارقة في الدم.

نهاية اللعبة

كان سامي وأخته سلوى يجلسان في حالة ملل بعد أن خرج والداهما للتعزية في وفاة زميل له مات إثر إصابته بالجمرة الخبيثة، ولم يكن لديهما ما يفعلانه، خاصة وأن والدهما كان قد وقع عليهما عقابا منذ الأمس، فوضع جهاز التليفزيون في كارتونه أغلقها بأشرطة بلاستيكية ليس من السهل فتحها، ورفع الكارتونه (وبها؟؟ الجهاز) فوق خزانة الملابس، وكان الأمر صعبا إلى درجة أنه كاد يسقط عن السلم.

قال سامي الذي يبلغ الثالثة عشرة، لسلوي التي لم تتجاوز العاشرة:

ـ وبعد ؟

قالت سلوي، ولم تكن في حاجة لمن يشرح لها مقصد أخيها:

ـ لا أعرف.

زم سامي شفتيه، واتخذ هيئة رجل عجوز عقد ذراعيه خلف ظهره وانحني للأمام، لكنه لم يكن قد ارتدي إطار نظارة والده

الفارغ، وأخذ يذرع الغرفة ذهابا وعودة، لكن سلوي لحقته بالسؤال:

ـ هل تعرف أنت؟

ثم مالت بجسدها علي الفوتي.

كان سامي يرتدي بيجامة مخططة، لذا فقد كان قريب الشبه بوالده الذي كان دوما يرتدي نفس النوع من البيجامات المخططة، لذا فإن سلوي فكرت في أمر النظارة فقفزت كالأرنب، ومشت إلى درج الكوميدينو في غرفة نوم والدها، وفتحت الدرج الذي يحتفظ فيه بالأشياء المحطمة التي لم تعد تصلح لشيء، وتلك المحطمة التي يمكن إعادة إصلاحها.

جاءت سلوي بإطار النظارة ووضعتها علي أرنبة أنف أخيها الحبيب المحبوس معها.

لم تقل سلوى شيئا ولكنها جذبته من سترة بيجامته وأخذته أمام مرآة الدولاب وهزت رأسها:

ـ هذا حسن.

لكن الفكرة الشيطانية كانت قد راودتها علي الفور.

قالت سلوي في نفسها بأنه لابد من فعل شيء ما لقتل هذا الملل، ولم تكن تعرف في البداية ما الذي عليها أن تقوله، لكنها، ولأن والدها نفسه يعمل في مكتب للبريد، ولم يكن يفعل في الأيام الأخيرة سوي الكلام عن الجمرة الخبيثة، وكيف أنه

أضحي يرتدي القفازات البيضاء والكمامات البيضاء أيضا، وأن هذا يضايقه، ولكن الحقيقة أن أحدا منهم، لا سلوي ولا سامي، أو حتى أمهما كان يرغب في الاستماع إلى هذا الشيء، إلا أنه في النهاية رجل طيب وأب.

ـ ما رأيك في أن نقوم بمسرحية؟

سألت سلوى.

ـ فعلا.

ارتدت سلوى هي بدورها جاكيتا لوالدها بدا واسعا جدا، وأمسكت بعصا المكنسة، وأخذت، وهي تنفث الدخان من قلم جاف مكسور، تروح وتجيء وتسأل:

ـ هه. هل لا زلت تشرب المشروبات الغازية؟

ـ بعد ضرب أفغانستان؟

ـ آه.

هز سامي كتفيه وجلس منحنيا وكاد يضحك، لأنه ظن أنه قد وصل في درجة التشابه مع والده إلى حد التطابق المذهل، لكنه كان يهز رأسه، كما كانت سلوى تهز رأسها مع كل جملة:

ـ أنا لا أشرب المشروبات الغازية.

ـ يا سلام.

ـ لأن الكوكاكولا هذه أمريكية.

ـ آه. أمريكية.

ـ وأنا لا أشرب الأشياء الأمريكية.

ـ يا سلام.

وما أن هم سامي بالوقوف من مكانه ليكمل الحوار المفترض بين الأب والأم، حتى سمع مفتاح الباب يتحرك في قفل الباب فوقف وسلوى مذعورين.

ألقي سامي بما في يده، كما ألقت سلوى بالجاكيت تحت السرير، ونظرا إلى الصالة حيث كان الأبوان لابسا السواد يدخلان وينتفضان من تعب الطريق، وقد خيم الحزن على وجه أمهما بالذات حيث بدت كأرملة تنتظر مصيرها المجهول.

تعال في الليل إلى نافذتي

- ١ -

لأنه كان قد مر بتجارب عديدة مريرة لم يكن يتصور أنه بالإمكان أن يعيش هذه اللحظات التي ظن أنها انتهت من العالم، لم يكن يصدق أن ما يهزه الآن هو محض ما يسمونه الحب، هكذا، بهذه البساطة، وهو عائد من لقائها يحس أن روحه ترفرف بعيدا، وأنه سعيد، سعيد حقا، وأن هذا هو الحب بالفعل، وأنه، حين قال لها وهما يجلسان في الكازينو المطل على النيل، بأن ما قالته عن أن هذا الشيء قد انتهى من العالم هو أمر سخيف، وأن هذه الحالة موجودة، وعلى الرغم من أنها ضحكت، وبان أنها ربما تكون تسخر منه، وأنها ربما تكون قد قالت في نفسها أنه شاب ساذج، إلا أنه بالفعل، ها هو يمشي الآن خفيفا، وأنه سعيد بالفعل، وأن ما كان يسخر هو نفسه منه، ومن الأغاني، وعبدالحليم حافظ، ومحمد فوزي، وحتى ليلى مراد، وكل ذلك، إنما هو شيء حقيقي أحسه اليوم، لا بل والأمس أيضا، حين أمسك بيديها، ونظر في عينيها، وأنه في الإمكان أن يقول ذلك

حتى لو ظنت أن ذلك محض هراء.

دخل البيت ولم يحس بشيء إلا وهو في هذه الحالة التي لا يريد أن يقول عنها.. أو من هذا القبيل، بل إنه استقلي على الفراش، ورأي القمر، وسمع صوتا يقول: تعال في الليل إلى نافذتي.

- ٢ -

هي أيضا لأنها كانت قد أصيبت بجرح وجرح وجرح واستمعت لكلام الناس من أن ذلك العصر قد انتهي، آمنت بذلك، وجادلت فيه، وأكدت له ذلك اليوم، على الرغم من أنها كانت تحس بغير ذلك، وبأن هذا الحب هناك، يرفرف في قلبها من الداخل، وان ما قالته له ونفت ونفت ونفت ما هو إلا كلام من وراء قلبها الذي كان بالفعل قد تحرك بعد طول تعب.

إنها الآن وهي عائدة من اللقاء كانت تحس بذلك، وبأنها حين جادلته لم تكن في حالتها الطبيعية، وأنها كانت تقول كلاما لا تحسه، وأنه، هو، كان على طبيعته أكثر، وأنها حين تلتقيه في الغد، فإنها ستحاول أن تكون على طبيعتها، حتى ولو كان الخوف لا يزال في نفسها، من صدمة أو جرح، لكنها ستقول وتخالف ما رددته مرارا وتكرارا هي وصديقاتها، بل وبنات جيلها كلهن، ستقول ذلك وستقول له أنه قيس، لا، بل، لأنها هي ليلى، وأنها ربما استطاعت أن تقوم بدور في الفيلم الشهير «أغلى من حياتي»

الذي نادت فيه البطلة: آاااحماااااد، ونادي البطل. لا ـ ي ـ لا، وأنها لن تنام اليوم طويلا لأنها تشعر بالذنب من أنها نفت من أن يكون ذلك الشعور لا يزال هناك في هذا العالم.

ـ ٣ ـ

ها هو الموعد قد جاء وعليه أن يضبط أحاسيسه بالشكل الذي لا يجعل منه، أو بالأحرى، يجعلها تفهم أنه، ربما، من أولئك الشبان الذين يمرون بالتجربة لأول مرة، وأنه، من الممكن أن يكون مثلها، ويردد ما تقوله الصحف، ومذيعات التليفزيون نصف العرايا، وهن يسألن الممثلين والممثلات عن نهاية عصر تلك المشاعر، وأنه بإمكانه أن يكون جافا، وأن ذلك الذي يحسه يمكن أن يكون شيئا خاصا به وحده، وأنه ليس من الضروري أن يصرح لها، الآن على الأقل، وهما في بداية شعلة الغرام، بكل تلك المشاعر، وأنه بإمكانه أن ينتظر عدة شهور أخرى، ويتجاهل أنه أصبح في سنواته الأخيرة أكثر إحساسا بمرور الزمن والأيام، وأنه لابد أن يضبط مشاعره، ويظهر في هيئة شاب من أولئك الشبان الذين ينكرون هذه المشاعر ويقولون بأن هذا العصر قد انتهى، وأنه لابد من أن يكون الشاب المعاصر من هذا النوع البارد، ولكنه حين رأي وجهها الجميل، لم يستطع أن يكتم مشاعره وقال لها: أنت كالقمر.

نزلت للقائه دون أن تحس بالوقت الطويل الذي قضته وهي

تزين نفسها، ولكنها لاحظت ذلك في فاترينة محل الملابس، وانتظرت حتى وصلت إلى الكازينو وتأكدت من أنها كانت لهفي، وأنه، قالت في نفسها، ما كان يجب أن أحضر للكازينو قبل الموعد بعشر دقائق، ولكنها أخرجت المرآة الصغيرة من حقيبتها، ورأت أنها لابد أن تصر على إنكارها أمامه، حتى ولو كان صدرها يهتز، ويدها تعرق، وعيناها تتوهان، ويكاد الإغماء يصيبها بالسقوط.

لكنها ما أن رأته حتى تأكدت من أن الحياة تمضي ببطء شديد، وأنه لابد أن تتمسك بموقف الإنكار الذي مارسته طويلا حتى لا يفلت منها، وأنها هي هكذا تكون قد أحسنت السلوك، لأنها تعلمت، لا فقط من أمها وخالتها، بل من كل النساء اللواتي عرفتهن، أن علي الفتاة أن تخفي مشاعرها، لا، بل تلعب لعبة الضحية، لأن الرجل بطبيعته صياد يحب الإيقاع بالضحية، وأنه لابد من الاستمرار في هذه اللعبة، وأنه إذا ما أحس بأن الصيد سهل فإنه سيهرب، ولكنها لم تستطع التغلب على انفعالاتها حين قال لها أنت كالقمر، فسقطت المرآة من يدها.

الآن تستطيع عيني أن تراك

كانت عينا يوسف قد دمعتا وهو يغلق باب شقته (غصبا عنه) لا لشيء، إلا لأنه رأى جارته أم صابر تعنف صغيرها صابر، إلى درجة أنه لم يحتمل النظر، خاصة وأنه لمح في يدها سكينا من ذلك النوع الذي يخشى مجرد الإمساك به، لا استعماله.

ما أن نزل يوسف السلم ووضع قدميه على رصيف الشارع، حتى شعر بالخجل (أو شيء كهذا) لأنه أو لا لم يكن قد عرف حقيقة الأمر، وأن المسألة كانت بالنسبة له دوما، لا أن تقوم أم بتعنيف ابنها أو حتى ضربه، بل أن تكون لهذا الشخص أو ذاك أم أصلا.

قال يوسف ربما كان هذا هو السبب إذن.

- ٢ -

خرج يوسف من الشارع الجانبي، ودخل الطريق الرئيسي، فوجد الكثير من الأمهات يمسكن بأيدي، أو رقاب، الكثير من الأولاد، فظن أن هناك احتفالا ما، ولكنه استغرب الأمر، وكان

على أي حال ذاهبا للقاء صديقته سلمى، التي راحت تصر، خاصة في المرة السابقة التي التقاها فيها بأنها ليست مجرد صديقة إنما هي أكثر من ذلك، ولم تتركه حتى قال بلسانه بأنها «حبيبته»، مع أنه كان يقصد ذلك على وجه التحديد.

حتى وإن كان قد نطق بغير ذلك.

- ٣ -

لم يكن الكازينو الذي سيلتقي فيه سلمى بعيدا، إذ سرعان ما وصل فوجدها جالسة في انتظاره، ولأنها كانت قد اعتادت على تأخره، فإنها لم تهتم، ولكنها اهتمت حين راح يرمق سيدة في عمر أمه كانت تجالس شخصا في عمر ابنها، لكنها، لم تتحدث بشيء عن هذا الموضوع في بادئ الأمر، ولكنها حين لاحظت أنه راح يكرر نظراته إلى تلك المرأة، نبهته إلى أن ذلك قد يكون أمرا غير ملائم، خاصة وأنها لاحظت أن الشاب الصغير الذي يرافق المرأة الكبيرة، كان يشعر بالحرج، ولكنها حين نظر مرة أخرى وكانت تحدثه عن أمر كانت تراه مهما للغاية، يتعلق بمستقبلهما معا، اضطرت لتنبيهه بشكل مباشر

قالت سلمى: ما الذي يجعلك تواصل النظر لهذه المرأة الكبيرة؟

قال يوسف. لا إنني أنظر للرجل الصغير

قالت سلمى بعناد. لا أنت تنظر للمرأة.

قال: لا إنني أنظر للرجل.

قالت: لا إنه ليس رجلا حتى. إنه مجرد شاب صغير.

قال. إذن أنت لاحظت ذلك؟

قالت: ما الذي لاحظته؟

قال: أن الرجل شاب صغير، والمرأة امرأة كبيرة.

قالت: ومن الذي لا يلاحظ ذلك. إن الفرق واضح جدا.

قال: لكن الرجل الصغير يبدو سعيدا على أي حال.

قالت: ربما يكون الأمر أمر مصلحة.

قال: وما الذي يدفعك لقول ذلك؟

قالت: الأمر واضح كالشمس.

قال: الأمر واضح هنا، لكن يمكن أن يكون مختلفا في مكان آخر

قالت: أي مكان آخر؟ ما الذي تقصد؟

قال: قد يكون هو سعيدا معها. هذا ما أردت قوله.

قالت: لا أنت تقصد شيئا آخر

قال: ربما.

قالت: ما الذي تقصدين؟

قالت: أف. الدنيا مليئة بأشياء غريبة.

ثم أردفت. هذه الأيام.

قال. هذه الأيام فقط؟ كانت الدنيا مليئة بهذه الأشياء طوال

الوقت. لكننا لا نريد أن نري.

قالت (بشبه غضب): آه. وهل سنستمر في الحديث في أمر الرجل الصغير والمرأة الكبيرة. هل سنستمر طويلاً؟

قال. لا يمكننا أن نتحدث في شيء آخر.

قالت: هيا. تحدث.

قال: في أي شيء؟

قالت: في أي شيء آخر. ألم تقل أنت ذلك؟

كان الغضب قد وصل إلى قلب يوسف، لكنه لم يكن قادرا على التعبير عنه، خوفا من انكشاف أمره، كما أنه، وقد كان يود مواصلة النظر إلى المرأة الكبيرة، وجد أن الأمر لا يحتمل، فطلب أن يتركا المكان.

خرج يوسف ومعه سلمى وتعمد أن يسير بها وسط الزحام.

لم يكن يوسف يعرف ما الذي جري إذ يجد في نفسه رغبة لا يستطيع مقاومتها للبحث عن ذلك الشاب وتلك المرأة على الرغم من أنه كان قد تركهما للتو هناك، في ذلك الكازينو، لكنه، ولأن تلك الرغبة كانت أقوى من أن يتخلص منها وجد نفسه يندس بين الزحام حتى ابتعد عن سلمى وتاه.

أخذ يوسف يمشي زائغ العينين لا يعرف ما الذي جري.

عاد يوسف من نفس الطريق.

لم يكن يبحث عن سلمى.

عاد يوسف إلى بيته.
وضع المفتاح في ثقب الباب ونظر خلفه.
قال: أين هي؟

اللوحة

-١-

حين لاحظ يوسف الصديق نظرات الاستنكار في عيون المارة المتزاحمين في شارع سليمان باشا وسط القاهرة، قرر أن يتخلص من هيئة الفنان التي كان عليها منذ سبعة عشر عاما، حين كان في السابعة والعشرين، واتجه إلي الكشك القريب من زاوية الميدان ليشتري آلة حلاقة جديدة، ليجز لحيته الكثة الشعثاء التي غزاها الشيب من كل ناحية، وقرر فيما بينه وبين نفسه أن يخفف من خصلات شعره الطويلة أيضا، ويعود بمظهر جديد، لا يلفت الأنظار، ويتجنب، بذلك، نظرات السخرية التي لمحها مرارا وتكرارا في الفترة الأخيرة، وكأنه كان غائبا وعاد فجأة إلي عالم جديد.

طوال تلك السنوات، ومذ قرر إطلاق لحيته وإهمال شعر رأسه، علي الرغم من الشيب، لم يكن يهتم بأي نظرة من هذه النظرات، ربما لأنه كان مهتما بشيء واحد، هو أن عليه أن يرسم ويعمل ليل نهار، وكان ذلك يحميه من أي شئ خارجي يحاول

الآخرون الإيحاء به.

لكن، ولأنه لم يكن يرسم مؤخرا، وبعد محاولات عديدة مزق خلالها عدة لوحات ملطخة بالألوان دون نتيجة، أصبح أكثر حساسية لما يدور حوله، كما أن تلك اللوحة التي تذكرها،وقد ارتج قلبه لساعات دون توقف،دفعته ليجد نفسه في حيرة: ما إذا كانت، تلك اللوحة، لا زالت هناك، بين اللوحات التي يحتفظ بها لنفسه، في مجموعته الخاصة التي تركها للزمن، في الركن البعيد من مرسمه، وبعد محاولات عديدة قضاها في البحث، وصل إلي نتيجة مؤكدة هي أن اللوحة ليست هنا، ضمن مجموعته الخاصة، وأنها بالتأكيد في مكان آخر، مكان ما، في أحد البيوت، أو المتاحف، بين أيد غريبة علي وجه اليقين.

قال:

ـ أين إذن ؟

وجلس علي أول طاولة من طاولات مقهي ريش المرصوصة علي رصيف شارع سليمان، وطلب زجاجة بيرة تجرع الكوب الأول منها دفعة واحدة.

ـ أين إذن ؟

كان يدرك أن قدرته علي التركيز قد قلّت، لكنه فيما يخص موضوع هذه اللوحة، قد تلاشت تقريبا.

ـ أين إذن ؟

لكنه لا حظ النظرات تعاود التحديق إليه كموجات متتالية لا تنقطع، لكنه حين تجرع الكوب الأخير من زجاجة البيرة الرابعة قال.

ـ لا ليسوا هؤلاء. هؤلاء لا يهمونك.

فالحقيقة أن ما يشغله الآن، ليس فقط فيما يخص عدم قدرته علي الرسم، ولا فيما يخص فقدان لوحته تلك، ولا أيضا ما يخص نظرات الآخرين، كل ذلك، ليس له أهمية علي الإطلاق بقدر ما وجد نفسه مهموما به إثر ملاحظة محددة أبدتها فتاة في التاسعة عشرة، بدت أنها معجبة برسومه، لكنها بدت بعد ذلك، وهو يحاول توريطها في البقاء معه حتى انتهاء فرجتها علي لوحاته،رافضة لأن تسير معه في الشارع، حيث أبدت،وبلا تردد،اعتراضها علي شكله هذا: ليس كل فنان حقا هو صاحب شعر كهذا أو لحية كهذه، أنت فنان، لكن هذا ليس له علاقة بذاك.

قال.

ـ ماذا ؟

ـ أفضّل مثلا لو أنك كنت علي طبيعتك.

ذهل ساعتها، وظن أن هذا إحراج جديد له أمام نفسه، علي الرغم من تفاهة الموضوع، وأنه، تذكر،كان قد أطلق لحيته وترك شعر رأسه بناء علي ما أبدته صاحبة اللوحة الضائعة من ملاحظة:

ـ آه لو أنك تركت لحيتك وربيت شعرك.

كان ذلك منذ سبعة عشر عاما مضت، وحينئذ كانت، سلوي، تلك،قد قبلت القيام بدور الموديل وجلست شبه عارية أمامه لساعات طوال ليرسم روحها في تلك اللوحة الضائعة.

ربما، علي الأقل هذا ما يذكره الآن، ربما، لكن الحقيقة أن أبناء جيله من الفنانين، كانوا يطلقون لحاهم في ذلك الوقت، وكان ذلك أشبه بموجة احتجاج علي ما يحدث، علي ما يذكر، وأنه فعل ذلك لأن الجميع كانوا قد فعلوا ذلك، يذكر، لا فقط من الفنانين أو الكتاب، بل من البشر العاديين الذين كانوا يملأوون الشوارع بلحاهم الشعثاء وشعرهم الغزير.

ربما.

لكن ماذا عن تلك اللوحة ؟ ولم يجد نفسه أسير الرغبة في معرفة أين ذهبت، أين هي الآن، علي أي جدار هي معلقة، أو ربما في أي بدروم تقبع؟

قال: لو أنني شحذت الذاكرة وعرفت، ربما انصلح حالي من جديد.

قام من المقهى شبه سكران، ولحق به الجرسون ليعيد له كيس البلاستك الذي يحتوي علي آلة الحلاقة والمعجون والفرشاة، ووجد نفسه في حرج أمام مسألة جز لحيته وشعر رأسه بعد كل تلك السنين، وقال أنه من الأفضل له أن يهتم بأمر اللوحة، وأن هذا،مهما استغرق من الوقت، فإنه أكثر جدوي من أي شيء آخر.

وصل إلي مرسمه وفتح الباب وهو يلهث. جلس إلي طاولته وسحب ورقة عريضة من الأوراق التي كان يستعملها في التخطيط لرسوماته، وبدلا من أن يبدأ في عمل التحضيرات الأولية للوحة جديدة قرر أن يبدأ في رسم خريطة يستعين بها في رحلة البحث عن تلك اللوحة.

قال: كيف يمكن أن تكون هناك خريطة لهذا الشيء ؟

لم يعرف حتى اسما لهذا الذي كان ينوي القيام به.

قام إلي المطبخ وصنع كوبا من القهوة المرة تجرعه في رشفات متتالية.

قال: كيف يمكن أن تكون هناك خريطة لهذا الشيء؟

-٢-

أفاق علي مظهره الجديد دون لحية أو شعر أشعث، وبدا كما لو أنه قد عاد لتوه من حلاق يتقن صنعته أعاده إلي ما كان عليه قبل سبعة عشر عاما مضت.

ثم أنه عاد للتحديق في المرآة ليتأكد من أن هذا لن يسبب له إحراجا من أي نوع، وقال، إنني، علي أية حال، يجب أن أختفي عن عيون الناس حتى أصل إلي حل لمسألة اللوحة، وأن هذا ربما استغرق وقتا تعود فيه لحيتي إلي ما كانت عليه من نمو، وفي هذه الغيبة يمكنني أن أختار بوضوح. هل هذا يعني أنك يجب أن تغلق الأبواب والشبابيك علي نفسك، وأن تظل في الظلام طوال

الوقت لتشحذ ذاكرتك ؟ وماذا لو اتضح أن عليك أن تبحث عن سلوي نفسها، فلربما كانت اللوحة عندها، وأنت تعرف أنها قد انقطعت عنك، وأنه ليس لديك أي دليل يوصلك إليها ؟

ماذا لو كنت قد بعتها لشخص عابر، لا تعرف حتى مجرد اسمه؟

تذكر أنه كان دوما يحتفظ بصور فوتوغرافية للوحاته قبل أن يعرضها للبيع أو يهديها.

قام وجاء بألبومات الصور الفوتوغرافية العائدة لأعماله منذ سبعة عشر عاما، ووجد صورا للوحات عديدة، لفتيات عديدات، لكنهن جميعا يبدين علي هذا النحو أو ذاك من الوجود، في تلك السلسلة من اللوحات التي كان قد بدأ بها حياته في الفن.

لم يستطع معرفة أي صورة من صور اللوحات هي.

نزع صور الفتيات وفردها أمامه علي الطاولة.

استبعدها واحدة بعد الأخرى، حتى انتهي إلي لوحتين متشابهتين إلا قليلا من الظلال المختلفة، وظن أنه ربما يكون لا زال يحتفظ بصورة شخصية لسلوي نفسها، تستطيع أن تؤكد له الفرق، فعاد إلي ألبومات صور الأشخاص الذين ربطته بهم صلة في يوم ما.

لم يجد صورة سلوي، أو أنه وجد صورا عديدة لفتيات مختلفات لم يستطع أن يذكر أيهن كانت سلوي.

- ٣ -

ما هو الوقت الذي عليّ أن أتحمله للوصول إلي حل ؟

وماذا لو أنني لم أصل إليه حتى تنبت لحيتي وشعر رأسي إلي ما كانا عليه من قبل ؟

قال إن الزمن، في هذه الحالة، لا يهم، وأن عليه، أولا، أن يبدأ رحلة البحث، ثم أنه، أثناء ذلك، عليه أن يقرر اللحظة التي يتوقف فيها، بافتراض أنه لن يصل إلي شيء.

ثم أنه وجد أن الأولي من أي انشغال آخر أن يصل أولا إلي: عن أي لوحة يبحث.

عند ذلك أفاق يوسف الصديق علي هذه الحقيقة القاسية فأجهش في البكاء.

الصالة الرياضية

كانت قد بدت مختلفة هذا المساء، علي الرغم من أنها هي التي أيقظته صباحا علي أصوات ضحكاتها المجلجلة التي بدت، منذ عرفها قبل أسبوعين، أنها، تلك الضحكات، قد أنقذته من الكآبة التي بدت وكأنها قد عششت في قلبه، لا، بل كل كيانه، حتى أنه فكر مرة في الانتحار، ربما، للمرة الأولي، لا، للمرة الثانية، وكان يظن أن قطار المرح قد فاته منذ زمن، علي غير ما أمل من قبل، عندما كان شابا، وها هي ندي، تضع الابتسامة علي شفتيها وتوزعها هنا وهناك، حتى كان هذا المساء.

لم يكن يظن، حتى الخامسة مساء، حين اتصلت وأصرت علي أن يكون لقاؤهما خارج البيت، لا خارج الفراش فقط، بل خارج البيت، في مكان عام، ولم تعطه أي فرصة، حتى، لاختيار المكان، بل حددته هي، وكان مكانا كئيبا في بدروم في فندق، في قلب القاهرة المعزول، حيث تلتقي الفتيات المحجبات المرعوبات مع الشبان المضيعين.

لم تكن قد تأخرت خلال المواعيد العديدة التي التقاها خلالها دقيقة واحدة، لكنها هذه المرة تأخرت أكثر من اثنتين وثلاثين دقيقة، ولولا أن الجرسون قد تأخر في إحضار القهوة المرة، لما تحمل كل هذا الانتظار الطويل الذي لم «يعتده» من قبل، لا لشيء إلا لأنه لم «يعتده» من قبل.

لكنها حين جاءت أيضا، وكان قد هم بالوقوف ليقبلها، كما فعلا في كل المرات السابقة، تعمدت الجلوس بسرعة غير متوقعة، وأظهرت علي وجهها علامات غير مألوفة، حتى ظن أنها ربما تكون قادمة لقطع علاقتها به، وهو ما نفته بمجرد أن لمّح إليه.

قالت: لا

قال. ما الأمر إذن ؟

قالت: لا شيء. أقصد أن..

ـ هناك سر ؟

سأل.

قالت: وكيف عرفت ؟

قال وهو يشير للجرسون الضئيل الذي يبدو أنه لم يحلق لحيته منذ أسبوع علي الأقل. واحد ليمون وقهوة سادة.

ـ لا لا أريد ليمونا ؟

ـ لا لم أعرف. فقط كنت أخمن. ماذا تريدين إذن؟

ـ أريد قهوة مضبوط.

ثم صمتت وعادت إلي القول:

ـ كيف عرفت أنني أريد ليموناً ؟

قال:

ـ كنت دائماً تطلبين ليمونا في مثل هذه الجلسات ؟

قالت: ليس دائماً. هل تذكر الآن أنا لا أريد ليمونا. ثم ها نحن نخرج عن الموضوع.

ـ أي موضوع ؟

ـ ذلك الذي كنا نتحدث فيه.

قال:

ـ آه.

وقفت وراحت تبحث عن شئ.

ـ أين حقيبتي ؟ سألت.

لم يرد.

انحت ورفعت الحقيبة من الأرض. جلست ووضعتها علي الطاولة بينهما. فتحتها وقالت في فرح مفاجئ:

ـ ها هو الألبوم.

ـ أي ألبوم ؟ سأل.

قالت:

ـ ألا تذكر ؟ الألبوم الذي حدثتك عنه.

وقفت وقد ازدادت مرحاً. قالت:

ـ ألبومي.

وقفت واستدارت جالسة بالقرب منه وغرست نهدها في ذراعه. فتحت الألبوم.

قالت: أنظر.

كان هو يحس بنهدها في ذراعه وبدأ يسخن ويستثار ويتطلع إلي شفتيها المكتنزتين اللتين كانتا أول ما لفت نظره إليها حين رآها للمرة الأولى.

ـ أنظر

كانت تشير بإصبعها بينما راح هو ينظر إلي يدها الطرية التي كانت أيضاً شيئاً مثيراً تمني، حين رآها للمرة الأولى أن يفتحها ويضع كفها علي شفتيه، لكنه لم يتمكن في المرة الأولى، بل في المرة الثانية حين جاءت وكانت هي أيضاً مستثارة وكانت ترتدى فستاناً حريرياً خفيفاً وفوقه «تى شيرت» خفيف أيضاً.

ـ هاأنذا.

كانت تشير إلي صورة صبية في عينيها شقاوة الدنيا ترتدى فستانا (كاروهات) قصيراً وتعقص شعرها بوردتين.

ـ أنت ؟

ـ نعم. أنا. ندى.

ثم أخذت تحرك الصفحات، والبنت الصبية تكبر كلما مضيت

الصفحات إلي الأمام، فإذا بالفتاة التي كبرت ترتدى جلباباً طويلاً فوقه حجاب من ذلك النوع الذي ترتديه فتيات كثيرات يحاولن البحث عن غطاء، وإذا بنفس الفتاة، بعد صفحتين من الألبوم في لباس البحر علي شاطئ الإسكندرية، فنظر إليها، لكنها كانت مشغولة بتقليب الصفحات دون أن تعني نظرته إليها أي شئ، لكنها راحت تقلب الصفحات حتى أغلقت الألبوم ووقفت.

ـ هيا بنا. قالت.

ـ إلي أين ؟. سأل.

ـ لا تسأل.

قالت وضعت الألبوم في حقيبتها ومشت أمامه، وانشغل هو قليلاً مع الجرسون لكنه لحق بها بعد أن دفع الحساب وهي واقفة أمام باب الفندق ولاحظ أنها تتصرف وكأن هذا المكان مكانها الذي ترددت عليه طويلاً، لكنه لم يقل أي شيء بهذا المعني بل استجاب لرغبتها وركب التاكسي الذي أشارت هي إليه وطلبت من السائق أن يأخذهما إلي نادى القاهرة، فانطلق بالفعل إلي ميدان التحرير الذي لم يكن مزدحماً علي غير العادة، الأمر الذي جعله يسأل.

ـ أي يوم هذا ؟

لكنها أشارت إلي فمها فسكت وتذكر أنه يوم الأحد حيث تخف حركة الناس في قلب المدينة لأن أغلب المحلات مغلقة.

قال: آه. اليوم يوم الأحد.

ابتسمت هي فبادلها الابتسام، لا لأن اليوم كان يوم الأحد، ولا لأن المدينة كانت هادئة، بل لأنه أحس أن مرحها قد عاد، وكان قد أحس منذ جاءت لكافيتيريا الفندق بأنها قد أضحت مكتئبة، ولم يكن يكره شيئاً قدر أن تكون الفتاة مكتئبة، خاصة وأنها فتاة صغيرة نسى الآن كم يبلغ عمرها لكنه لم يجرؤ علي سؤالها، إذ لم يكن من اللائق أن يسألها وهما في التاكسي مثل هذا السؤال الذي من المفترض، علي الأقل أمام سائق التاكسي أنه يعرف إجابته، لكن التاكسي، الذي كان قد مر منذ قليل علي كوبري قصر النيل حيث يقبع الأسدان عند مدخله، قد توقف أمام باب النادي ونزل هو ثم نزلت هي خلفه وأصرت علي أن تدفع للسائق أجرة التاكسي وأحس هو بالحرج، لكنها كانت قد بدت في صورة الفتاة العصرية التي ترفض أن يدفع لها الرجل، أيا كان، في كل وقت.

ـ تعال.

قالت وهي تمسك بيده لتدله علي الطريق داخل النادي، بل إنها هي التي دفعت له أجرة الدخول فبدت أكثر عصرية مما كان يتصور وظلت ممسكة بيده حتى وهي تحيي عددا من الرجال والنساء الذين كان بعضهم يجلسون في ظلال الأشجار علي الطاولات لا يفعلون شيئاً وبعضهم الآخر يركضون أو يقفزون

بالكرات هنا وهناك ؛ لكنها ما أن عثرت علي طاولة لا يجلس عندها أحد، حتى أخذته إليها ووضعت حقيبتها وجلست وأخرجت علبة سجائر لم يكن قد رآها من قبل وراحت تدخن، ثم أنها طلبت له فنجانا من القهوة السادة وطلبت لنفسها آخر من الشاي وقالت:

ـ هل تعرف لم جئت بك إلي هنا ؟

قال:

ـ لا

قالت: لأحكي لك عن سر

قال وهو ينظر إلي لافتة تشير إلي « الصالة الرياضية»: آه.

قالت:

ـ لكن قبل أن أحكي أريدك أن تعرف شيئاً ربما لم تلحظه في ألبوم الصور.

ـ ما هو. قال.

ـ أنا أحب الكاراتيه.

قال:

ـ وأي شئ في هذا، أنا نفسي كنت أتمني.

قاطعته:

ـ تلعب كاراتيه ؟

قال:

ـ كنت أتمني.

قالت:

ـ خلاص. اتفقنا. يمكنني أن أعلمك.

قال:

ـ كان هذا منذ زمن.

قالت:

ـ ولم لا يكون الآن ؟

قال:

ـ الآن مستحيل. لقد كبرت علي تعلم أي لعبة لم ألعبها منذ كنت صغيراً.

قالت:

ـ وهل تظن أنك عجوز ؟

لم يجب لكنها قالت:

ـ هل تعرف. كل صديقاتي علي علاقات برجال يكبروهن في السن.

أحس بالحرج لكنها عادت لتقول.

ـ صديقتي سلوي. أظن أنني حدثتك عنها ؟.

لم يجب فعادت هي للقول:

ـ تلك التي تهوي قيادة الطائرات. أتذكر ؟

تذكر طبعاً وقال: آه.

قالت:

ـ سلوي هذه التي تقود الطائرات علي علاقة برجل في الخامسة والخمسين وهي سعيدة جداً.

قال:

ـ آه.

ـ كل صديقاتي هكذا.

هز رأسه وفكر أنه ربما يكون قد حان الوقت الآن للمغادرة، لكنه لم يجرؤ علي فتح الموضوع، لكنه تذكر أنها كانت قد قالت شيئاً عن أنها تود أن تقول له شيئاً فقال:

ـ لكنك كنت تقولين..

قالت:

أرجوك لا تغير الموضوع.

قال:

ـ أي موضوع ؟

قالت:

ـ موضوع السن.

قال:

ـ فهمت.

قالت:

ـ إنني لا أقصد أن أقول أن الفارق بيننا يصل إلي هذا الحد.

لكنني. تصور. نسيت.

ـ ماذا نسيت ؟

ـ نسيت ماذا كنت أقول عن هذا.

قال:

ـ والآن ؟

قالت:

ـ لا شيء. آه. تذكرت. صديقتي سلوي هذه أيضاً ليست عذراء.

قال:

ـ وهل هذا شيء مهم ؟

قالت:

ـ الأولاد هذه الأيام يهتمون جدا بهذا الموضوع.

ـ ليس كلهم علي ما أظن.

قالت:

ـ لا أولاد هذه الأيام كلهم يهتمون به.

قال:

ـ ربما.

ثم أنها صمتت ولم تقل شيئاً وبدت وكأن الأسى يعاودها، فعاد هو يقول:

ـ أظن أنه في جيلي أنا أيضاً، أقصد أنني حين كنت في مثل

سنك، كان الأولاد في سني يهتمون بهذه المسألة.

استمرت في صمتها لكنه في هذه اللحظة لم يعرف كيف يحرك كل هذا السكون، خاصة وقد بدأ يتبين أنه في مكان ليس مكانه ولا يعرف عنه شيئاً وأنه ربما يكون هناك شخص ما يسترق السمع إليهما.

قالت:

ـ لم تنظر هنا وهناك ؟

قال:

ـ لا لا شيء. فقط أستطلع المكان.

ولأنها لم تقل شيئاً عاد هو يقول مرة أخرى:

ـ إنه مكان ظريف. هل تعرفين ؟

هزت رأسها.

قال:

ـ إنني لم أحضر إلي هذا المكان من قبل.

هزت رأسها مرة أخرى.

لم يقل شيئاً، لكنه سرعان ما أدرك مدى الأسى الذي ربما يكون هو السبب في هذه التجاعيد الرفيعة التي لم تكن ظاهرة لعينيه من قبل، لكنها أضحت واضحة في هذه اللحظة بالذات، خاصة في رقبتها، وتحت عينيها.

قال وهو ينظر للشمس الغاربة:

ـ أظن أنه حان وقت الرحيل.

قالت:

ـ إلي أين ؟

قال.

ـ سأذهب إلي بيتي.

قالت:

ـ أنا سأنتظر. سأنتظر سلمى.

قال:

ـ وهل سأراك غداً ؟

قالت وقد بدا المرح في عينيها مرة أخرى

ـ بالطبع.

قال:

ـ اتفقنا ؟.

قالت وهي تنظر في عينيه لتتأكد.

ـ آه. اتفقنا.

البرج كحدث واقعي

(إلي المفكر والروائي الإيطالي المبدع امبرتو إيكو
الذي أوحت لي محاضرته «حلم اللغة المثالية» بهذه القصة)

كان البناءون قد بدءوا في الارتفاع إلي قمة البرج التي يعملون عندها منذ ساعات الصباح الأولي، وحين وصلت إلي الموقع، بعد أن قطعت حوالي الألف كيلو متر من السفر المضني، لم يكونوا قد وصلوا بعد إلي القمة، لذا فقد أعد لي مضيفي (الذي لم أكن أعرف اسما له سوي مصطفي) مجلسا مريحا علي دكة فرش عليها كليم مخطط باللونين البني والأسود من شعر الماعز، ومدّني بإبريق من الشاي المغلي،وضعه علي صينية من النحاس،وبجواره كوب صغير وحيد، وقال:

ـ هيا. أشرب. تسلي. حتى يصلوا..

ونظر إلي أعلي، حيث كانت أحجام البناءين تتناقص كلما واصلوا ارتفاعهم علي السقالات.

كان مصطفي هو الذي اختارني من بين كل الصحفيين الذين

يعملون في عشرات الصحف لتغطية حادثة بناء البرج، لأنني، أولا: كنت قد أبديت اهتماما مبكرا بتغطية أحداث البناء التي جرت خلال العشرين سنة الماضية مذ بدأت احتراف مهنة الصحافة (ولا يخفي أنني عدت للماضي كثيرا في مقالاتي وضمن ذلك ما كتبته بشيء من الأسى عما جري لمشروع البنّاء العظيم حسن فتحي مشيد قرية القرنة التي هجرها مهربو الآثار الذين بنيت من أجلهم) وثانيا: لأنني نفسي كنت قد شيدت بيتا ريفيا يطل علي بحيرة قارون، غدا بالنسبة للمتطلع له من بعيد علي هيئة برج، مما جعل بناة هذا البرج يفضلونني علي غيري من الصحفيين لرواية هذه الحادثة، وكان مصطفي حين قدم إلي القاهرة لدعوتي قد ذكر لي بأنهم يبنون البرج، هكذا دون تفاصيل، ورفض الحديث عن أية أسباب لذلك الفعل الذي يبدو للوهلة الأولي عبثيا، لكنني حين رأيت البناءين يصعدون إلي الأعلى بهمة ونشاط أدركت أنهم يفعلون ذلك بأقصى قدر من الجدية، بل خلت أنهم يقومون بما يعتقدون أنه عمل تعلوه لمحة تقديس، لكن مصطفي فاجأني وهو يجلس القرفصاء علي الأرض:

ـ طبعا أنت تسأل ؟

هززت رأسي دون أن أنبس بكلمة.

ـ باختصار. المسألة أن جدنا كان قد أوصانا ببنائه حين تظهر علامات معينة، وحين بدأت هذه العلامات في الظهور بدأنا.

هززت رأسي مرة أخري (ربما لأنني لاحظت منذ الوهلة الأولي التي رأيته فيها أنه شخص قليل الكلام، لا يحب كثرة الحديث، وكان هذا لا بد قد فت في عضد شخص مثلي صنعته الكلام).

نظر لأعلي متابعا البناءين وهم يقفون الآن علي السقالة الأخيرة، لكنني فكرت، أيضا، أنه ربما كان ينظر للسماء:

ـ ألا تلاحظ ما حدث في الكلام ؟

ـ أي كلام ؟

سألت.

لكنه ابتسم كمن ضبط شخصا يدعي عدم الفهم.

قلت:

ـ صدقني، لا أعرف عن أي شيء تتحدث.

شوّح بيديه وهم بالوقوف، ثم شبك أصابع يديه في بعضها البعض، وبحركة ساحر،لف ذراعيه خلف ظهره دون أن يفك يديه المتشابكتين، وقال في لهجة صراخ مكتوم:

ـ يا قدوس.

وركض ليختفي خلف الخص / الغرفة المصنوعة من العشب وجذوع النخيل،حيث بدأ عدد من العمال يظهرون من نفس المكان، خلف الخص، وهم يحملون آلات العمل (الفؤوس، الجاروف، القفف، وعربة اليد التي يسمونها البرويطة) وبدءوا

العمل.

تخيلت أنهم سيبدءون بعد لحظة في الغناء (ربما تأثرا بما تحفظه الذاكرة من أغاني سيد درويش)، لكنهم لم يفعلوا، واستمرت لحظات الصمت التي لم يكن يقطعها سوي أصوات الفؤوس وهي تدب في كومة التراب، أو صوت الماء وأحد العمال يسكبه من صفيحة يحملها علي كتفه آتيا بها من قناة الماء هناك عند مرمي النظر، أو صوت البكرة والحبل المشدود إليها والعمال يشدون طرفه ليرفع طرفه الآخر القفة المليئة بقوالب الطوب اللبن أو صفيحة الطين.

قلت أنه لابد أن يكون البرج قد ارتفع الآن إلى ما يوازي الطابق الثاني عشر من ناطحة سحاب علي شاطئ نيل القاهرة.

وكان هناك رجل ملثم بكوفية مشي في اتجاه البرج، ودخل بابه المفتوح، لكن شيئا ما علق بكم جلبابه، فعاد وخلصه ثم اختفي داخل الباب (ولا أعرف لم تخيلت أنه ربما كان الآن يصعد الدرجات إلي أعلي البرج)، ثم جاء أربعة رجال يحمل كل اثنان منهما عمودا من الخشب، ودخلوا من باب البرج.

لا بد أن هناك درجات، قلت، وفكرت للحظة أن أقف لأتطلع من الباب، لكنني فضلت أن أقف لأحرك قدمي اللتين أعياهما طول الجلوس، ورأيت مصطفي قادما من بعيد يحمل

بين يديه صينية مغطاة ببشكير من المربعات الطوبي والأبيض والأصفر(تذكرت أن أمي، رحمها الله، كانت تحتفظ بعدد من هذه البشاكير في دولابها لتخرجها كلما زارنا ضيوف).

وضع مصطفي الصينية النحاس ورفع البشكير عنها: بيض مقلي في طاجن من الفخار، وجبن قريش، وعسل أسود بطحينية.

قال:

ـ لابد أنك جوعان.

ثم حين لاحظ ترددي قال فيما يشبه الأمر

ـ اجلس.

وتذكرت أنني في هذه الناحية من الصعيد بالقرب من الأقصر لا يمكنك أن ترفض طعاما يقدم لك وإلا اعتبرت إهانة لا تغتفر

إقتربت وجلست علي الكنبة وأحسست بشهيتي تنفتح (وخلت أنني لم آكل منذ زمن البيض المقلي في الطاجن ولا العسل الأسود بالطحينية ولا الجبن القريش)

جلس مصطفي القرفصاء مرة أخري بجوار جانب الدكة الأيسر التفت إليه.

ـ ألن تأكل معي ؟

قال:

ـ أكلت، نحن نأكل بعد الفجر، قبل أن ننزل للعمل.

ثم في حركة مفاجئة:

ـ كل أنت وأنا سأتحدث.

بدأت فعلا في تناول رغيف الخبز الشمسي وكان ساخنا خرج لتوه من الفرن.

قال:

ـ ألا تلاحظ ما جري في الكلام ؟

لم ينتظر إجابتي لأنه لم يكن عندي إجابة علي سؤال لم أكن حتى أعرف معناه.

أضاف:

ـ اختلاف الألسنة ؟

التفت إليه بفم ممتلئ.

ـ هذه هي العلامات، حين بدأت الألسنة في الاختلاف، بعد ظهور التلفزيون، لا التلفزيون وحده، بل الدش أيضا، تصور، ستنظر إلي بيوت كل الناحية وستجد هذه الدشوش تملأ أسطح البيوت، حتى الذي لا يقدر، باع بقرته واشتري واحدا، بعد هذا الظهور،وقد رحنا نسمع كلاما غريبا تقوله الألسنة فلم نعد نفهم شيئا، صدقني، أنا شخصيا أجلس بالساعات أمام هذا الجهاز ولا أفهم شيئا، أساتوك ومناتوك وخلافه، وهكذا قام الشيخ علي، هذا الذي ربما تكون قد لمحته داخلا البرج منذ لحظات، وهو خطيبنا والرجل الكبير عندنا، أخرج الوصية وجمعنا وقرأ منها

الأمر الكبير، ورأينا فعلا أننا في فترة اختلاف الألسنة هذه، وهكذا قال أن الوقت قد حان لبنائه، هذا البرج الذي ليس برجا لحمام أو من هذا.

وصمت ثم قال:

ـ ولعلمك لسنا وحدنا من يبني برجه، هناك أبراج عديدة تبني هذه الأيام، في نواح عديدة، لكنها قد لا تكون أبراجا بهذا الحجم، أو الطول، لكن أبراجا عديدة تبني هذه الأيام، صدقني، الناس راحوا يبنون أبراجهم، لأنهم ماذا يفعلون ؟

ـ ولماذا البرج بالذات ؟

وقف وواجهني:

ـ هذا ما طلبه منا.

قلت:

ـ آه.

ـ هذا ليس من شأننا، إن كل ما في يدنا أن ننفذ المطلوب، فهناك أشياء لا تستطيع أن تفعل شيئا سوي أن تنفذها.

قلت مرة أخري:

ـ آه.

قال:

ـ لابد أنك تضحك الآن في نفسك، أو أنك ربما فسرت الأمر علي أنه جنون، (وطبعا لن تنظر للجنون الآخر الذي انتشر كالنار

في الهشيم) لكن الشيء الذي أردتك أن تراه، أنت بالذات، لأنني كنت أطالع كتاباتك في الصحف، فأنا أيضا شاعر، إنني أكتب الشعر لكنني لم أحتمل العيش في المدينة،فعدت إلي أهلي، عدت دون أن أنال الشهادة التي بدت لي، هي، لا أي شيء آخر العبث بعينه، لا تؤاخذني لقد مسحت بها خلفيتي وعدت ألوذ.. لا أعرف بم سوي أنني قلت أنني ألوذ بالمكان، فهذا أفضل من ذلك الذي كنت فيه في المدينة، وكل ما أردتك أن تراه،هو أن هذا البرج يشيّد فعلا، الآن، وفي هذا الوقت، في بداية القرن الحادي والعشرين،وفي هذا المكان، في جنوب مصر، وأن هذا البرج هو شيء واقعي تراه بعينيك، وسوف يتاح لك، إن لم تكن مصابا بالخوف من الأعالي أن تصعده إلي آخر طبقة لو أردت، لا تؤاخذني، لقد تحدثت طويلا، لكن هذا آخر شيء سأتحدث به عن هذا الموضوع، وأنت حر.

كنت قد انتهيت من طعامي فحمل الصينية من أمامي، اختفي بها للحظات خلف البرج ثم عاد بصينية الشاي، لكنني كنت قد أحسست بالنعاس فتمددت مستندا إلي جانب الكنبة وكان البرج في مواجهتي. وضع مصطفي صينية الشاي علي صفيحة مقلوبة بجوار الدكة وغادر المكان.

غفوت للحظات ثم استيقظت علي صوت غناء يأتي من هناك في الأعلي، غناء حقيقي كان يؤديه العمال من أعلي البرج، ثم أنني رأيت شخصا قادما من بين الزروع راكبا حصانا بني اللون له عرف أشقر، ما لبثت أن تبينت أنه هو مصطفي لكنه كان أحاط وجهه بكوفية من نفس النوع الذي كان الرجل الذي دخل البرج قد لفلف بها وجهه.

قلت:

ـ هل تصدق ؟ أنا لم أتبينك لأول وهلة.

تجاهل كلامي وسأل:

ـ ألا تريد أن تتبين البرج، ألا تريد أن تتفرج؟

حملت حقيبة يدي الصغيرة (التي أحتفظ فيها بجهاز التسجيل والكاميرا وبعض الأوراق والأقلام، لكنني لم أجرؤ علي إخراج أي منها حتى اللحظة) وقمت متجها ناحية البرج.

لم يكن هناك باب لأدفعه، لكنني وجدت سلالم حجرية صاعدة، وشممت رائحة رطوبة تنبعث من الجدران التي لا تزال لينة، وقلت أنه لابد لي من الصعود بأي حال، وفعلا بدأت الصعود، ولا أعرف كم مر من الوقت حتى وصلت للمكان الذي كان يعمل عنده البناءون، لكن ما جري أنني رأيت الشمس وهي تغيب، تنزل في البعيد خلف منظر الحقول وأشجار النخيل والبيوت القليلة التي تأكدت أن أطباق التلفزيون ترتفع فوق

أغلبها، وما أدهشني حقا هو أن العمال لم يتوقفوا عن الغناء، فقط بدا صوتهم وقد انخفض بمجرد ظهوري بينهم، وكان مصطفي قد بدا صغيرا كلعبة أطفال تتحرك بين الحقول الممتدة بالخضرة،وقلت أنني رأيت كل شيء الآن، البرج يشيد فعلا وفي الواقع، وأظن أن ما أراه من هنا من هذا المنظر هو أجمل مشهد يمكن به ختام أي قصة.

تاريخ اختراع الزلابية

لأول مرة في حياته فكر الدكتور علي محمود أن يكتب قصة قصيرة، ولأنه لم يكن قد جرب كتابة القصص القصيرة أو الطويلة من قبل، احتار في الأمر، وأخذ يروح ويجيء في غرفة مكتبه المكتظة بالكتب وهو في حيرة شديدة من أمر هذه الرغبة الغريبة التي انتابته في هذا العمر، وهو الذي أوشك علي بلوغ الستين، ولم يعرف لذلك أي معني سوي خاطر مر بذهنه وكان معناه يرمي إلي الشك في جدوي صنعته التي قضي في احترافها عمره كله كمؤرخ للموسيقي.

قال: هل معني ذلك أن كتابة القصة أجدي لحياتي ؟

وكمؤرخ محترف للموسيقي كان كلما احتار عاد إلي زرياب يستنطق حياته المليئة بالعبر والموسيقي، فأخذ يبحث عن كتاب كان هو نفسه قد ألفه عن المغني الأشهر ابن القرن التاسع الميلادي الذي أبعده أستاذه في الغناء من بغداد غيرة منه ليعيش في القيروان،ويثبت جدارته هناك أيضا، فقربه الخليفة

منه وأهداه عددا من الجواري، كان من بينهن جارية أشبه بجهاز التسجيل في حياتنا المعاصرة،حتى أنه كان كلما خطرت بباله فكرة، وهو في منتصف الليل،أيقظها لتشهد ميلاد اللحن الذي يؤديه علي العود وتحفظه وتعيده عليه في اليوم التالي، هو ومجموعة الموسيقيين، من ذاكرتها العجيبة التي لا تخطيء، ليشتغلوا عليه.

لكنه لم يعثر علي كتابه،وإنما عثر علي موسوعة «مغني العرب» حيث كان يعرف أن مؤلف الموسوعة حكي حكاية طريفة عن جارية أخري من جواري زرياب (كان الخليفة قد أهداها له هي أيضا) لكنها لم تكن مغنية أو عازفة، بل كانت مختصة بصناعة الحلوى لزرياب وضيوفه، وعلي رأسهم الخليفة الذي كان يأتي متخفيا في الليل، ليعب الشراب ويستمع للموسيقي من زرياب وجواريه،ويأكل الحلوى من يد صانعة الحلوى الرقيقة التي جاءت عصر أحد الأيام باكية لزرياب (خاصة أنه كان من المنتظر أن يهل الخليفة مساء هذه الليلة) تشكو إليه من أن مقادير الحلوى قد زلت بها فأضافت الكثير من الماء علي الدقيق، وانتهي الأمر بأن صنعت حلوي لم يكن أحد قد صنعها من قبل في التاريخ، فاستطعمها زرياب ووجدها طيبة، فأكل منها بشراهة دفعت رهط الجواري للضحك الذي جلجل في أركان القصر، وإذا بزرياب

يغني لما أسماها «الزلابية» ومعه الجواري.

قال الدكتور علي محمود في نفسه: أعتقد أن هذه حكاية لطيفة يمكن أن تكتب علي هيئة قصة قصيرة.

ولأنه كان يعرف أن كتابة القصص المأخوذة عن أحداث التاريخ الحقيقية أضحت الآن أمرا ممجوجا، خاصة ونحن في القرن الحادي والعشرين، وقصة الزلابية جرت قي القرن التاسع،رأي الدكتور المؤرخ أن عليه أن يدون عناصر قصة الزلابية في ورقة ويذهب لاستشارة نجيب محفوظ، فربما أقره علي فعلته.

ولأنه كان يعرف أن محفوظ رجل مجامل جدا، خاصة تجاه من يحاولون كتابة القصص، قال إنه لا بد سيقرني علي كتابتها، فلم إذن لا أكتبها دون أن أذهب إلي محفوظ أو غيره ؟

وبالفعل جلس إلي مكتبه وسحب مجموعة أوراق من رزمة الورق الأبيض النظيف الذي يحب الكتابة عليه، وأمسك بالقلم وأخذ «يشخبط» و«يشخبط» لكنه لم يستطع أن يخط حتى ولو سطرا واحدا عن جارية الزلابية، فقال لم إذن لا أكتب قصة زميلتها صاحبة الذاكرة التي كانت تعوض زرياب عن جهاز الريكوردر الذي لم تكن البشرية قد توصلت إليه بعد، فهي علي الأقل اختراع بشري مذهل ؟

وعاد للشخبطة من جديد حتى انتهي به الأمر إلي الإغماء،ولم يستطع أن يكتب أي قصة من أي نوع، بل إنه حين أفاق عاهد نفسه،وأسر بالعهد إلي نجيب محفوظ من بعيد، بأنه لن يحاول مرة أخري، لا كتابة قصة قصيرة أو طويلة، ولا حتى مجرد التفكير في كتابة أي منهما،وأن عليه أن يعود لمهنته،ويستكمل مسيرته كمؤرخ للموسيقي (فهذا علي الأقل هو ما أنفق حياته كلها في عمله) وهو وإن كان أحيانا يضيق به، إلا أنه كان قد وجد فيه، في كثير من اللحظات، سعادة لا توصف، خاصة حين يؤرخ لقصص من نوع قصة الجارية مخترعة الزلابية، أو زميلتها صاحبة الذاكرة الحديدية التي عوضت زرياب عن جهاز الريكوردر، وعوضتنا موسيقي قيل أنها كانت جميلة، وظل الناس يغنونها لعدة قرون، ثم انمحت ولم نعد نسمعها، لأنه لم يكن هناك كثيرون يمتلكون ذاكرة مثل ذاكرة تلك الجارية، وجهاز الريكوردر لم يكن قد اخترع بعد.

توزيع الديوك علي الأشجار

كانت «هـ. ل.خليل» الدكتورة في العلوم السياسية، والحاصلة علي درجتها العلمية من جامعة بركلي في الولايات المتحدة، تجلس علي فوتييه مريح في صالة شقتها الأنيقة تحاول قراءة مسودة ورقة ستقدمها في مؤتمر عن مشكلة الشرق الأوسط المزمنة، لكنها ما أن قرأت بضعة أسطر حتى وجدت يدها تهتز فيما يشبه انهيارا في قواها، علي الرغم من أنها كانت قد استيقظت لتوها من نوم عميق استغرق ثلاث ساعات، بعد أن عادت من يوم عمل طويل في مركز الدراسات السياسية الذي تعمل فيه باحثة مميزة تؤهلها إمكانياتها لرياسته في الدورة القادمة التي ستحل بعد ثلاثة أشهر من الآن.

لقد عرفت بخبر ترقيتها المقبلة هذا المساء من رئيس المركز الذي سيحال إلي التقاعد في نفس الوقت، وكانت، طبعا، فرحة للغاية، لكنها وهي تستمع إلي ما أسر به إليها في مكتبه شاهدت نوعا من الأسى علي وجهه، خاصة وهو ينطق كلمة تقاعد، و لم

يترك الجملة تمر دون تعقيب عن مرور الزمن، وكيف أنه ينساب من أيدي البشر دون أن تكون لهم أي إرادة في إيقافه، وأنه، وهو الرجل الذي لم يكن يكف عن التعبير عن حبه للحياة، ومتعها العديدة، كان قد بدا لها، فجأة، عجوزا تبدو علاماتَ النهاية علي وجهه فيما يشبه لمحة من الظلام.

اعتدلت « هـ. ل. خليل » في جلستها وتطلعت إلي المرآة البعيدة هناك في الركن القصي، لكنها فضلت أن لا تقوم بالحركة التالية، فقد كانت تعرف أن الأيام قد تركت بعض علاماتها،خاصة عند منحنيات رقبتها، وهي الآن ليست علي استعداد لتري أي شيء من هذا، لكن إحساسها بالوحدة عاودها من جديد، ورأت أن الأمر لم يكن أبدا متعلقا بإهمال الرجال لها، بل العكس، فقد كانت تعاني من مضايقاتهم لها، مضايقات بلا حدود، لكن كل ما في الأمر أن كل تجاربها التي أملت أن تستمر، لم تستمر، مرة بتعقيدات يتسبب فيها الآخرون، ومرة كانت تحس بأن شيئا ثقيلا يخيم علي قلبها، المهم أنها الآن وحيدة، وكل الرجال بعيدون، حتى أنها صدقت كلام صديقة عمرها سناء القماش، وهي مثلها باحثة جادة في أمور السياسة، لكنها تزوجت أخيرا بعد أن قبلت الفكرة التي رفضتها هي.

ـ السحر. السحر السحر.

ـ ماذا ؟

ـ أنت طبعا لا تصدقين، لكن السحر موجود في القرآن، وفي كل الأديان الأخرى.

ـ لكن لم يسحرني أحد ؟ أنا لم أفعل شرا بأي شخص ؟

ـ ومن قال لك بأن من قام بعمله لك رجل ؟ لم لا تكون امرأة ؟

ـ امرأة ؟ ولم تقوم امرأة بعمل سحر لي ؟

ـ آه. أنت لا تعرفين، ربما تكون قد ظنت بأنك ستخطفين رجلها، ربما هي غيرانة من جمالك، أو منصبك، أو شقتك، أو سيارتك، أي من هذه الأشياء.

ـ لكن كل هذه الأشياء أشياء عادية جدا، فسيارتي صغيرة وشقتي متواضعة مقارنة بالشقق الأخرى، أنا في النهاية امرأة علي قد الحال.

ـ المشكلة ليست في هذا، المشكلة أنك لا تصدقين.

ـ أصدق ماذا ؟

ـ أنك مصابة، وحتى تصدقي، لابد من اعترافك بأن وضعك سيئ، سيئ للغاية، فأنت قد تجاوزت الخامسة والثلاثين.

كانت هـ. ل. خليل» تعرف أن صديقتها تجاملها، لأن الأخرى كانت تعرف أنها قد تجاوزت الخامسة والثلاثين بسنتين وأربعة أشهر واثني عشر يوما، لأنها هي التي كانت تقيم لها أعياد ميلادها بحكم صداقتهما المتينة، وقد آلمها هذا، في

هذه اللحظة،إلي درجة أن منعها من تنفيذ رغبة مرت بخاطرها وكادت تقوم بالاتصال بصديقتها سناء، لكن خاطرا آخر جعلها تقف وتتمشي في الصالة خفيفة الضوء مسدلة الستائر.

ـ« لنفترض أنني لا زلت عند رأيي بأن شيئا من هذا لا يمكن أن يكون قد حدث لي، لكن ما الذي جري لسناء، لقد أقنعتها جارتها بأنها واقعة ولا بد في الشرك، وصدقتها، وكل ما فعلته، بعد أن صدقتها، أنها قامت بزيارة الساحر لمرة واحدة، وكلفها هذا بضع جنيهات، وبافتراض أن كل هذا غير حقيقي، لكن النتيجة أنها تزوجت في الأسبوع التالي، وانحلت عقدتها، ويمكنني أنا أيضا، أن أخفي عدم اقتناعي بأي من تلك الأشياء، أعني أن أكون واقعة تحت تأثير هذا الشيء، وأن المسألة ببساطة مجرد زيارة لذلك الرجل، زيارة واحدة ومبلغ من المال لن يكلفني هذا سوي القليل، وربما هي أيضا تجربة إنسانية مفيدة أن أتعرف علي هؤلاء الناس وعوالمهم الغامضة، أن أنزل للشارع، بعد أن ابتعدت طويلا وأنا أقبع لسنوات في الغرف المكيفة، في المكاتب، بين الأوراق والكتب، أنزل للناس وأري ماذا يفعلون وفيم يعتقدون، ويمكنني حتى أن أتخفي، أن ألبس جلابية بلدي وملاءة لف، أو ألبس الحجاب والخمار أو حتى النقاب، النقاب أفضل لأنه سيخفيني كلية، تماما، لن يعرفني أحد، لا، لكن الملاية اللف فيها فكرة، خاصة لو لبست المنديل أبو أووية، والفستان الساتان

بالكرانيش، والخلخال الذي يشخلل: شكلل. شكلل.

عند هذه البادرة أحست فعلا بفرح غمرها حتى أنها أقبلت علي جهاز التلفون وداست علي أرقام صديقتها، وهي تهتز، وتلملم رأسها، لكي يكون كلامها مقنعا، لكن، ولأن أحدا لم يرد، داست علي الأرقام مرة أخري، فربما طلبت الرقم بشكل خاطئ، وانتظرت وقد بدأ القلق يعتريها، فقد كانت تعرف علي وجه اليقين بأن صديقتها في البيت، وأنها قالت لها بأنها لن تخرج اليوم، لكن من يعرف، ربما فعلت الرومانسية فعلها وعزمها زوجها علي عشاء في أحد المطاعم، وربما ذهبا معا إلي السينما،وربما يكون المسرح الذي قال زوج سناء بأنه يحب ارتياده حتى ولو كان العرض مجرد مشاهد ضاحكة لمجرد التسلية.

ـ ولم لا يكون الأمر من نفس المسألة، أعني أن يكون هذا جزءا من الموضوع، عندئذ سيكون الأمر قد تعقد. ياه. ليتني سمعت كلام سناء.آه. هاهو الرنين.

رفعت السماعة فوجدت صديقتها سناء علي الطرف الآخر

ـ ألو سناء. اتصلت بك، كنت في الحمام؟، طيب، المهم، انتظري، ماذا؟، لا، أنا كنت أقول، طيب، طيب، متعبة ؟ من ينادي؟، ستنامين ؟، طيب، تصبحي علي خير

لم تترك سناء لها فرصة للكلام، وقد بدا أنها كانت في الحمام

لأنها كانت، قبلها، في غرفة النوم مع زوجها، ربما كانا قد..

هكذا إذن يمكن أن تتغير أمور المرأة حين تتزوج، تصبح الثرثرة معها علي التلفون محكومة بظروفها كزوجة، أنا أذكر..

كانت بالفعل قبل زواج سناء تتحدث معها بالساعات، أحيانا حتى يطلع الفجر، دون أن تتململ أي منهما أو تعتذر بأي عذر، ربما لأنه لم يكن هناك رجل يتسبب في وجود مثل هذا العذر، أي حياة هذه ستكون، لا، من الأفضل أن أتراجع عن الأمر برمته، كيف يمكنني أن أكون راغبة في الحديث مع صديقتي ويمنعني الزواج من إتمام مكالمة، أليس من الممكن أن تكون صديقتي في حاجة ماسة إليّ كما كنت أنا علي التو في حاجة ماسة إليها، لكن لم أفكر أنا الآن علي هذا النحو الصبياني، أليس من المفترض أن يعذر الإنسان الإنسان الآخر، ويقدر ظروفه، ربما كانت متعبة مثلا، أو أن الملل قد أرهقها حتى لم تعد لديها رغبة في الحديث مع أي شخص، حتى ولو كانت أعز صديقة..

ما الذي تفعلينه ؟

انتفضت « هـ. ل. خليل وهي تضبط نفسها وهي تحدق في تجاعيد رقبتها، وبدت الصالة مظلمة حتى أنها فعلا أطفأت الأضواء وركضت إلي سريرها وسحبت الغطاء علي رأسها.

ظلت لحظات لكن الأفكار بدأت تعاودها، فتذكرت ذلك التمرين الروحي الذي تعلمته علي يد ذلك الهندي الذي كانت

قد تلقت علي يديه دروسا في اليوجا حين كانت في جامعة بركلي وعلمها كيف تتحكم في أفكارها حتى تتمكن من التمدد في سكون، لكن، وبدلا من ذلك السكون سمعت صياحا أشبه بصياح مجموعة متوحشة من الديوك المعلقة تتوزع علي أفرع الأشجار العالية في حديقة الجيران التي طالما سمعت العصافير تغرد عليها في صباحاتها السابقة، قبل أن يتمكن هذا الضجيج من رأسها، فانفجرت في نوبة واسعة من البكاء.

مفتاح منتصف الليل

وضع (س.س) يده في جيب سترته العميق ليخرج المفتاح كالعادة، لكنه لم يجده في الجانب الأيمن، قال:

ـ لقد تعودت أن أضعه هنا.

أسند عصاه التي بدأ يتوكأ عليها منذ عدة أشهر، بعد أن تزايدت عليه آلام الظهر، في الركن القريب من الباب، وأمسك بالصحف التي كانت في يسراه، وراح يبحث بيده الفارغة في جيبه الآخر، بين القطع النقدية المعدنية، وعلبة «القطرة» التي صرفها له الطبيب كدواء لعينيه، والقلم الرصاص الصغير (الذي غالبا ما يعالج به حلولا مختلفة للكلمات المتقاطعة)، لكنه لم يجد المفتاح.

قال:

ـ لقد تعودت أن أضعه في هذا الجيب أو ذاك.

لكنه اضطر، صاغرا، أو ربما لحاجته الملحة في دخول الحمام، إلي إلقاء رزمة الصحف أمام قدمه اليمني، ومد يده

إلي جيبه الداخلي، واضطر لإخراج الحافظة، وأمسكها باليد المرتعشة، وبحث تحتها في جيبه، فلم يجد سوي ضرسه المعطوب (الذي كان قد احتفظ به مذ خلعه قبل أيام) فاضطر لفتح الحافظة (ربما كان قد تسرب إلي أحد جيوبها) فسقطت بعض القطع المعدنية القديمة التي كان يحتفظ بها منذ سنوات، فتأكد أن المفتاح، لا، ربما، يكون في السروال، لكنه اصطدم بحقيقة أن جيبي سرواله كانا مثقوبين منذ زمن، ولم يسعفه الوقت ليصلحهما، فتأكد أن المفتاح.. معقول ؟ لقد أغلقت به الباب في الصباح، ثلاث «تكات»، هكذا، كما أضحي يفعل في الأيام الأخيرة.

هز الباب القديم المثبت في مكانه بقوة لم تزدها الأيام إلا صلابة، فلم يستطع زحزحته شعرة واحدة، وكانت مثانته قد بدأت تضغط عليه، حتى انه فكر في أن يتخلص من آلامه في الركن البعيد المظلم علي السلم، لكنه خشي أن يكون جاره قد استيقظ بفعل الصوت الذي أحدثه الباب المغلق وهو يهزه بلا أي جدوى، فنظر للسلم القديم ذو الدرجات العالية، ثلاث طوابق كاملة عليّ أن أنزلها لأتخلص من هذا الألم.

هذا الألم الذي أخذ يتزايد لدرجة أنه لم يستطع أن يحرك قدميه، فما كان منه إلا أن تبول علي الباب، باب مسكنه هو نفسه، ولم يحدث، لحسن الحظ، أن استيقظ أحد من الجيران، علي

الرغم من أنه كان يسمع أصوات المسلسلات الرتيبة آتية من الأعلى والأسفل، من هنا وهناك،من وراء أبواب الشقق، وما أن تخلص من ألمه حتى لملم نفسه بأقصى سرعة استطاعها، وهبط السلم، وخرج من باب البيت القديم المتآكل.

مشي بضع خطوات، ولم يحس بالأمان حتى وجد نفسه علي رصيف الشارع العريض الذي تزاحمت العربات المركونة علي أرصفته، فمشي بينها بصعوبة، ولم يتوقف حتى وجد نفسه يستند علي سور كورنيش النيل، ويتطلع إلي ماء النهر المنساب، فتزايدت الرتابة في نفسه، علي الرغم من انه كان قد قضي يوما لم يعتد«ه» منذ زمن.

- ٢ -

كان اليوم يوم عطلة، نعم، لكنه، وبدلا من أن يرتاح، فضل الذهاب في جولة يقوم فيها بزيارات مؤجلة منذ زمن، حتى انه كاد ينسي أهله وأصدقاءه الذين كان يعدهم بمثابة أهله، ولأنه كان مصرا علي أن يقوم بالمرور عليهم واحدا واحدا دون أن ينسي أيا منهم عاد خالته ثلاث مرات، لم تكن موجودة في اثنتين منهما، حتى وجدها وقضي معها وقتا طويلا حتى أنها شكت في أنه ربما يكون هناك أمر ما، يخفيه عنها، فأخذت تلح بالسؤال:

ـ هوا فيه حاجة كفا لله الشر ؟

وراح هو ينفي كل مرة، لكن الشك لم يترك ملامحها حتى وهي تودعه علي عتبة الباب.

ـ ٣ ـ

لم يكن هو يحب التليفون، حتى انه لم يمتلك واحدا في حياته، ولم يأبه علي الإطلاق بالكلام الذي راح يقذفه الناس في اتجاهه، وهم يحاولون إقناعه بضرورة أن يكون لديه واحدا، خاصة وأنه يري تلاميذ المدارس الآن يحملون التليفونات في أيديهم ويتحدثون بلا انقطاع، وكان حماسهم وهم يتبادلون الكلام، قد جعله يحس بضرورة أن يظل ثابتا علي موقفه.

قال:

ـ ألا يكفي هذا الضجيج الذي أضحي يصم الآذان حتى يصطحب الواحد تليفونا إلي غرفة نومه؟

لذا، فإن أحدا من الذين زارهم هذا اليوم، قبل أن يفقد المفتاح في نهايته، لم يسأله عن أي شيء ، حتى صديقه (ف. ف) المعروف بدقة مواعيده، لم يغضب من مفاجأته بالزيارة دون موعد، وإن كان قد استعجل الخروج معه ليجلس به علي أقرب مقهى، وتركه هناك بعد دقائق لم يكن حتى قد أكمل فيها احتساء كوب من الشاي.

ـ أصلي أنا مستعجل.

ـ وأنا أيضا.

وكان هو بالفعل صادقا.

علي الأقل لأن الذين كان قد انتوي زيارتهم يتوزعون علي أربعة أركان هذه المدينة التي أضحت الحركة فيها أمرا لا يطاق، هذه القاهرة التي أضحي زحامها يصم الروح،ومع ذلك، لم يتراجع عن خطته حتى زارهم واحدا واحدا دون كلل.

ـ ٤ ـ

المشكلة انه كان سعيدا، كان سعيدا جدا لدرجة انه سمع السؤال عدة مرات:

ـ هوا فيه حاجة كفا الله الشر في وشي ؟

ـ لا

ـ ومال ليه بتبتسم ؟

ـ لا كدا يعني.

ـ كده ؟

ـ آه.

ولأنه لم يكن علي استعداد لفقد البهجة التي كانت ترفرف حوله، بل وتدغدغه من الداخل، منذ اللحظة التي استيقظ فيها هذا الصباح، وقرر علي أثرها القيام بهذه الزيارات، فإنه لم يكن

يهتم بمثل هذا السؤال، أو أي سؤال آخر، فقد كان سعيدا بالفعل، حتى انه ضبط نفسه يصفر بأغنية عبد الوهاب «يا دنيا اجري بينا»، بإيقاعها الفرح المعروف، بل انه لم يهتم بما بدا علي وجوه الناس، وهم يلتفتون إليه في استغراب.

- ٥ -

كان قد قام بجولة ناجحة، لم يخلف فيها واحدا (أو واحدة) من معارفه وأصدقائه، بل وأهله، حتى أولئك الذين كانت صلته بهم تقع في البعد القصي من القرابة، لكنه ها هو الآن، يجد نفسه في هذا الموقف الصعب، واقفا علي كورنيش النيل، يتطلع لماء النهر، وقد بدأ الليل يتقدم إلي النهاية، وأطرافه بدأت ترتعش من البرد.

أين يذهب أو كيف يفتح الباب ؟

فكر للحظة أن يذهب للحسين، وينام علي أرض الجامع، لكنه خشي من أن يراه شخص ربما كان قد رآه يدخل المشرب ليسلم علي صديقه (ك. ك) ويجلس معه لبعض الوقت، علي الرغم من انه لم يلمس بشفتيه أي شراب، فقد كان قد كف عن الشراب منذ وقت طويل لا يذكر مداه، لكنه راح يشتمّ سترته، فربما كان عبق الشراب قد علق بأحد أكمامها.

ثم انه كان قد تعب، ولم يكن ما هو عليه من عمر، يؤهله لأن

يقف هكذا علي قدميه طوال هذا الوقت، حتى يأتي الصباح، وفكر انه ربما كان عليه أن يعيد الجولة حين تطلع الشمس، علي كل الذين زارهم، ليجد المفتاح، لكنه قال إن الزيارة هذه المرة ستكون أشبه بمحاولة الاشتباك في شجار بلا معني، أو أن بعضهم ربما فهم بأنه يتهمه بشيء ما، كسرقة هذا المفتاح علي سبيل المثال، لكن الفكرة خطرت بباله كالبرق.

ـ ولم لا أذهب وأجلس علي عتبة الباب، فربما وجده أحدهم، وجاء ليعطيني إياه.

لكنه فكر بأن هذا سيكون أمرا محرجا، خاصة وأن أحدا من الجيران لم يره جالسا عند عتبة الباب من قبل، هكذا، وفي هذا الوقت من الليل.

قال:

ـ الأفضل أن أفكر بكل ما.. لأتذكر متي (أو أين) وضعت يدي في جيبي، في أي مكان، أخرجت هذا الشيء أو ذاك.

لكنه لم يستطع أن يتذكر متي أو أين وضع يده في جيبه، ورأي أن المسألة تراوح مكانها دون حل.

لأذهب إذن إلي إحدى الحدائق.

لكنه وجد نفسه وقد أصبح مكتئبا كفاية بشكل ربما لا يلائم الذهاب إلي حديقة، قال، لأنتظر إذن، حتى يطلع الصباح،وأذهب إلي النجار القريب من البيت، لأطلب منه أن يكسر الباب.

- ٦ -

ارتاح لهذه الفكرة التي بدت أنها أكثر الأفكار جدارة، وأقلها مخاطرة، لكنه وقد بدأ يتحرك مع طلوع الشمس، رأي ملامح وجهه في مرآة الدكان وقد بدت عليها علامات الاكتئاب، وقف علي جانب، واستند للجدار.

قال

ـ عليّ أن أبتسم قبل أن أذهب، فكيف لي أن أتحدث مع النجار عن كسر ضلفة الباب في الصباح الباكر وأنا علي هذه الحال ؟

- ٧ -

لكنه بعد عدة خطوات أحس برعشة، فنظر للأرض، فسقطت النظارة من عينيه، لكنها تعلقت برقبته بالخيط الذي يربطها من الخلف، وقبل أن يري، لم يعد يحس بأي شيء علي الإطلاق.

الغـــابـــة
أو
إشغالات موقع التصوير

كنت أجري وأجري وأجري ثم.. وقفت.

كنت ألهث.

كنت مرهقا جدا، أتصبب عرقا، لكنني كنت أري كل شيء.

كنت في فيلم، لكنني، في نفس الوقت، أري المشاهد المتتالية، كما لو كنت جالسا في الظلام، في قاعة سينما، أري كل ما يجري. كانت الكاميرا تتحرك علي الشانيون، وأنا أتراجع لأري الموقع كله: كنا علي حافة غابة ؛ أعني مزرعة كثيفة الأشجار وكان هناك طرزان وشيتا.

قفز طرزان من شجرة إلي أخري (مستعملا حبلا من الأغصان) ثم قفزت شيتا خلفه، وكنت أمسك أنا بخصر لينا ترنر وكانت ساخنة جدا وناعمة.

ثم..

لسبب ما، لم يعد هناك طرزان ولا غابة، ثم وجدتني أمسك بعمود من الخشب، وربما، لأننا كنا في فيلم، ظهرت سعاد حسني في فستان مزركش، قصير، يظهر نهديها الفتيين ؛ ثم أن ذراعها كان قريبا جدا من وجهي حتى أنني شممت رائحة عطر كان كفيلا بسريان خفوت في جسدي، ثم بدأ أحد فنيي المؤثرات يوجه خرطوم الهواء ناحية كوم من التراب، فأحسست بالغبار في رقبتي.

هرولت فزعا وألقيت بنفسي في بركة صناعية، فإذا بالتمساح فاغرا فمه. أمسك بذراعي، لكن المخرج صرخ فإذا بالتمساح يترك ذراعي لأجدني في حضن تحية كاريوكا.

ـ سلامتك يا حبيبي..

هكذا قالت.

ثم شممت رائحة الديتول وأفقت.

كانت هند رستم تضع رأسي علي حجرها وتلقمني في فمي شربة الخضار، لكن المخرج لم يعجب بهذه الحركة فسحبت فخذها من تحت رأسي، فإذا برأسي تصطدم بجذع نخلة ليظهر عبد الحليم حافظ وشادية في حديقة الأورمان وهما يغنيان:

عبد الحليم. احتار خيالي مع الليالي

مين اللي يعرف جواب سؤالي مين ؟

ثم أحسست بغفوة أسرتني خلالها رائحة العشب.

شادية: قلبي وقلبك سوا،

يمكن يكون الهوي.

ترارا.

لكن شادية غضبت منه وجاءت ناحيتي (وخلت، لا أعرف لم، أن غضبها من عبد الحليم كان نتيجة لأنه كان قد صد سعاد حسني بقسوة).

كنت ممددا علي العشب الأخضر،أمسك بأصابعي غصنا أخضر، وكانت السماء خضراء أيضا.

كنت أري شادية من بين الأغصان والكاميرا تقترب منها، بينما مساعد المخرج، وبعض العمال،يرفعون نخلة ويغرسونها خلف عربة شيفورليه قديمة.

كان أحمد رمزي قد نظر في اتجاهي بحقد، فأبعدت عيني عن ساقي هند رستم، التي كانت تضحك، بينما رشدي أباظة يزم شفتيه ليلقمها قبلة.

انفجر إطار السيارة، وأطلق العمال طيورا كثيرة من الأقفاص: حلّقت الطيور والمخرج يجري وراء الأسد الذي كان يلتقط الطيور بلسانه واحدا بعد الآخر بينما المخرج يقول.

ـ ليس كل الطيور.. لا تلتهمها كلها.

لعق الأسد لسانه المبلل بالدم، وألقي بنفسه في البحر

كانت هناك سفن عديدة، والقراصنة يلوحون بأسلحتهم مهددين المدينة، بينما الحراس يطلون من كوي القلعة / الحصن، فارتفعت أصوات أبواق الحرب، ونادي المنادي. البرابرة قادمون.

وقفت لأرفع صوتي لكن المخرج هرول ناحيتي وفي يده خيزرانة:

ـ اسكت، أنا أعرفك، أنت ستتسبب في أن..

ـ أنا ؟

ـ آه. أنت لا تريد للفيلم أن يكتمل،

ـ أنا ؟ أنا فقط أردت أن أن أقول أن هذا الكلام لكفافي،

ـ وماذا في هذا ؟

ـ عليك أن تنسب الكلام لصاحبه.

ـ أنت تريد أن أملأ العمل بالحواشي ؟

ـ الكتاب..

ـ أي كتاب ؟ لم يعد هناك كتاب، نحن هنا في السينما،

ـ وماذا عن مشهد الذئب ؟ هل تريد أن تتخطي هذا المشهد الهام.

ـ لقد قلت لك من البداية أنني سأجد طريقة لوضع الذئب أو الثعبان في الفيلم، اتركني الآن لأكمل العمل.

وظهر المنتج، وحوله حاشيته المعتادة: البودي جارد،

واللبيس: حامل الحقيبة، والسكرتيرة، والسائق، فصاحت نادية لطفي بكلام غير مفهوم غير انه انصب علي أنانية المنتج الذي رفض أن يخصص لها لبيسة، بينما هو، علي غير عادة المنتجين، يخصص لنفسه واحدا، لكن السيناريست كان يهمس لحامل الراية:

ـ ألم أقل لك انه جاء ليقرفنا، لا بد انه سيسأل. أين الراقصة، أين السرير؟

لكن المنتج فاجأ الجميع.

ـ هذه أيام صعبة، أريد فيلما عن الأيام الصعبة.

ـ ستخسر كل شيء. الناس في حالة كرب، وعليك أن تدغدغ عواطفهم بشيء من...

قام المنتج، أقصد اعتدل في وقفته:

ـ أنا أريد أن أخسر. أريد أن.. لم يعد الآن بإمكاني أن..

فقال المصور:

ـ ياعيني عليه، يريد أن يلعب دور حفيد الست آسيا، يريد أن يخسر آخر قرش في جيبه ويرحل.

ـ لكن هذا الدور يحتاج إلي ممثل من حجم المليجي.

لم أكن أقصد شيئا، كما أنني لم أكن، علي الرغم من أنني كاتب القصة المأخوذ عنها هذا الفيلم، قد رأيت السيناريو، لكن هذا ما حدث. صورة مرسومة بحجم ثلاثة أدوار للمليجي،

رسمها رسام الإفيشات المعروف بأنه لا يحسن رسم أنوف الممثلين، علي الرغم من براعته في اقتناص الروح، تدخل(هذه الصورة) محمولة علي أعناق العمال (يمكنك أن تري الإرهاق علي وجوههم المنتفخة من هول الحمل الثقيل) وتتقدم إلي وسط البلاتوه، ويبدو أن الصورة لم تعجب المخرج، الذي تطلع إليها دون أن ينطق، بينما صاح الجميع بإعجاب حوّل البلاتوه إلي مظاهرة، وحتى لا تبتعد الأضواء عن المنتج صاح بدوره:

ـ هذه لقطة رائعة، صوّر هذه اللقطة.

ـ هذه مظاهرة.

ـ قلت لك صورها، أريد هذه المظاهرة في الفيلم.

اقترب المصور مني،غير مصدق ما يقوله المنتج:

ـ الله، ما الذي جري، كان يخاف من القطة.

ـ الأغرب انه كان يريد بروفة حريق، حريق صغير، يشبه الحريق الكبير الذي يمكن أن يحدث.

ـ أي حريق ؟

ـ انه راح يهذي منذ فترة بحادثة حريق يأكل كل شيء.

قال المصور.

ـ يكفي انه لم يسأل عن الراقصة،

ـ أو السرير ؟

ـ أو السرير..

وبينما راح العمال يحاولون تثبيت صورة المليجي الكبيرة علي الأرض، أحسست بيد علي كتفي.

كان هذا هو الصحفي الذي يدعي بأنه ناقد، ولم يكن يتخلف عن حضور التصوير في أي فيلم أو مسلسل، وكان يفخر بذلك دوما:

ـ لكن أنا.. يعني، حيران، عن أي شيء هذا الفيلم..

لسوء حظه سمعه المنتج المهتاج.

ـ عن الأيام الصعبة ياسيدي، مسمعتش عن الأيام الصعبة.

طبعا كان هو يسأل، عن شيء آخر، فلم يكن يعرف (وربما كان علي حق لأول مرة في حياته) ما هو السبب في أن تركض سعاد حسني في الغابة خلف لينا تيرنر، ولا كيف لعبد الحليم حافظ أن يمسك بذيل الأسد ويطوح به في الهواء علي هذا النحو، ولا كيف أن تحية كاريوكا عادت للرقص بعد أن ارتدت الحجاب، كما أن أحدا بالتأكيد لا يعرف الرابط بين رشدي أباظة وطرزان، إلا إن كان هذا مجرد خلفية من الحنين لتلك الأيام.

لكنني أكاد أقطع بأنني لم أكن أقصد أن يكون مشهد الأم التي تنتظر جثة ابنها الغريق، علي هذا النحو من السذاجة، غير أنني يمكنني أن أتفق علي أن ما يجري خارج البلاتوه كان أصعب من أن تتم كتابته في أية قصة، وهو، ربما، سيجعل هذا الفيلم، لا فقط، آخر أعمال هذا المنتج اليائس، بل انه بالتأكيد سيكون

أول وآخر أفلام المخرج الشاب الذي راح يتطلع إلي صورة المليجي بذهول بينما يقوم العمال بمحاولة الإمساك بها قبل أن تسقط، لكن صوت الارتطام جعلنا جميعا في حالة صمت استمر لحظات قبل أن ترتفع أصوات الضحايا.

ثم أنني..

كنت أجري وأجري ثم.. وقفت.

كنت ألهث.

كنت مرهقا جدا، أتصبب عرقا، لكنني كنت أري كل شيء.

كنت في فيلم، لكنني، في نفس الوقت، أري المشاهد المتتالية، كما لو كنت في الظلام، في قاعة سينما، أري كل ما يجري: كانت الكاميرا تتحرك علي الشانيون، وأنا أتراجع لأري الموقع كله: كنا علي حافة غابة ؛ وكان هناك طرزان وشيتا.

قفز طرزان من شجرة إلي أخرى (مستعملا حبلا مبللا بالدم) ثم قفزت شيتا خلفه، وكنت أمسك أنا بخصر لينا تيرنر، وكانت ساخنة جدا وناعمة.

فهرست

رجل العواطف يمشي على الحافة	٥
المقابلة	٩
في ظل قصة ما	١٧
الزاوية الأخيرة في طبق الأصداف	٢٣
نرمين. عيون خضراء	٢٩
معلم الموسيقى	٣٥
القلب من الداخل	٣٩
تمشية لطيفة في مكان آخر	٤٣
الملعب الطبيعي	٤٧
قصة أخرى	٥٣
اللاعب	٥٥
زهرة واحدة في المدينة	٦٧
تلك الأشجار التي تلتقط الحمام الزاجل	٧١
تلفون	٧٧
نهاية اللعبة ...	٨١

تعال في الليل إلى نافذتي	٨٥
الآن تستطيع عيني أن تراك	٨٩
اللوحة	٩٥
الصالة الرياضية	١٠٣
البرج كحدث واقعي	١١٥
تاريخ اختراع الزلابية	١٢٥
توزيع الديوك على الأشجار	١٢٩
مفتاح منتصف الليل	١٣٧
الغابة أو إشغالات موقع التصوير	١٤٥

أعمال أخرى

فارس علي حصان من الخشب، رواية قصيرة وخمس قصص قصيرة، ط١ دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٨، ط ٢ مع مجموعة " الوداع تاج من العشب " وكالة الصحافة العربية ١٩٩٦م، ط ٣، وكالة الصحافة العربية، ١٩٩٧ م، القاهرة.

- الوداع تاج من العشب ، مجموعة قصص، ط ١ هيئة الكتاب، القاهرة،١٩٨٥، ط٢ مع رواية فارس علي حصان من الخشب ،وكالة الصحافة العربية ١٩٩٦، ط٣ وكالة الصحافة ١٩٩٧ م.

تحريك القلب، رواية الجزء الأول، ط ١ دار ألف والمركز العربي للنشر ١٩٨١، ط٢ نفس العام، المركز العربي للبحث، ط٣ دار التنوير ودار المثلث بيروت،١٩٨٢ ط ٣ بغداد دار الشئون الثقافية ١٩٨٤ م.

سبيل الشخص رواية، ط١، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢ م ط٢ بغداد، دار الشئون الثقافية، ١٩٨٤ ط ٣ دار مصرية، ١٩٨٨ م ، ط ٤ مع مجموعة قصص ، هيئة الكتاب، القاهرة، ١٩٩٥ م.

مواعيد الذهاب إلي آخر الليل، رواية ط ١ دار الهلال، ٢٠٠٤ م

عطلة رضوان .....

عبده جبير

رجل العواطف

يمشي على الحافة

قصص